



توركواتوتاسو

تأليف : يوهان فلفجانج جيته
ترجمة وتقديم : د. عبد الرحمن بدوى

أول سبتمبر ١٩٨٠

تصدر عن
وزارة
الإعلام
الكويت



من المسرح العالمي

توركوا توتاسُو

تأليف: يوهان فلفجانج جيتة

ترجمة وتقديم: د. عبد الرحمن بدوي

تصدر عن: وزارة الإعلام - الكويت

مقدمة بقلم : د. عبدالرحمن بدوى

هذه مسرحية شعرية عالية النبرة حافلة بالمعاني الجليلة ، وتسرى فيها روح تحلق فى علياء الفن ، تناوئها روح اخرى تتشبث بالواقع البارد والخبث الاصيل فى طبيعة الانسان .

انها مأساة شاعر جامح الخيال دائم التحليق لا يربطه بالارض الا اوهى الخيوط ، اشتعل قلبه بحب مستحيل التحقيق ، للتفاوت الهائل فى المكانة الاجتماعية بين المحب والمحبوبة ، وبسبب النفاق الذى اقيمت عليه حياة الناس : كلا القلبين يشعر ، لكن احد القلبين تحتجزه الاوضاع التى تعارف عليها المجتمع فينكر بلسانه ما يستشعره فى صميم قلبه ، ويتظاهر بما يكذبه كل انفاسه واحساسه ، فيقضى على وجده بيده ، ويسوق الى الجنون من ابى قلبه الا الصراحة والاخلاص .

فى حديث جرى فى يوم الاحد السادس من مايو سنة ١٨٢٧ سأل سكرتير جيته ، اكرمن Eckermann اية فكرة اراد جيته ان يعبر عنها فى هذه المسرحية ، فقال جيته :

« اية فكرة ؟ والله لا ارى . كانت امامى حياتى انا . فخرجت من قسمات هذه الاشكال الغريبة صورة شاملة ، وشاهدت صورة تاسو تتولد شيئا فشيئا فى نفسى . وكمقابل مبتذل عارضت به انطونيو ، ونماذجه هو الآخر لم تكن تعوزنى . ثم ان البلاط والحياة والدسائس الغرامية فى فيمار Weimar كانت تشبه ما كان فى فرارا Ferrara ، وفى وسعى ان اقول عن تاليفى هذا بحق : انه عظمة من عظامى ، ولحم من لحمى . لكن ما اغرب الالمان من قوم ! انهم بأفكارهم العميقة التى ينشدونها ويدسونها فى كل مكان يجعلون الحياة اشد ايلاما مما ينبغى ودون ما داع . فلتكن لديك الشجاعة ذات مرة لترك نفسك على سجيتها ، تجدد نفسك ، وتتاثر ، وتسمو وتتعلم ، وتتحمس وتنفعل لامر عظيم ، دون ان تقول لنفسك دائما ان كل شيء سيكون عبثا اذا لم يستطيعوا

ان يكتشفوا فى هذا كله فكرة مجردة ... على وجه العموم لم تكن تلك طريقتى من حيث انا شاعر ان اسعى لتجسيد المجردات . كانت نفسي تتلقى انطباعات ، انطباعات من آلاف الانواع ، محسوسة ، حية ، محبوبة ، مختلفة الالوان ، كما يصورها خيالى الحى ، وبوصفى شاعرا لم يكن أمامى الا ان اهب هذه الانطباعات شكلا فنيا ، وأصنع منها كلاما ، وأن انميها واعرضها فى رسوم حية ، بحيث يستطيع الاخرون ، حين يسمعونني او يقراوننى ، ان يشعروا بها بدورهم ... ان العمل الشعرى يكون حسن ، بقدر ما يكون غير قابل للقياس ولا للادراك . »

وهذا القول يحتاج الى فضل بيان :

١ ـ ما هو المصدر الذى اعتمد عليه جيته فى عرضه لشخصية تاسو ؟

٢ ـ ماذا فعل بالشخوص التاريخية التى وجدها فى ترجمة حياة هذا الشاعر العظيم ذى النهاية المأساوية ؟

٣ ـ ما هى الافكار الاساسية التى بثها جيته من خلال هذه المسرحية ؟

وما علاقتها بحياته الخاصة وحياة عصره واهل عصره ؟

فلنحاول الاجابة الان عن هذه الاسئلة الثلاثة .

ـ ١ ـ

تاسو كما عرفه التاريخ

بطل هذه المسرحية هو الشاعر الايطالى العظيم توركواتو تاسو :

ولد تاسو فى الحادى عشر من شهر مارس سنة ١٥٤٤ فى سورنته بخليج نابلى فى ايطاليا ، وهو ينحدر من سلالة نبيلة عريقة اصلها من اقليم بومبارديا فى شمالى ايطاليا .

وكان ابوه ، برنردو تاسو (١٤٩٣ ــ ١٥٦٩) شاعرا ولد فى فينتسيا من اسرة تقيم فى برجامو غير بعيد عن فينتسيا . واشتغل هذا الوالد سكرتيرا فى خدمة امير سالرنو منذ سنة ١٥٣٢ ، لكن هذا الاخير حل فى محنة فى سنة ١٥٤٧ غير انه ثار على ادخال محاكم التفتيش فأصدر الامبراطور كارل الخامس ـ في سنة ١٥٤٧ ـ قرارا بأنه خارج عن القانون . وشاركه في هذه الادانة كاتبه برنرد وتاسو . فان على هذا الاخير ان يهرب من مملكة نابلى ، بينما بقيت وزوجه وابنهما توركواتو واخته كوزيليا .

ثم لحق بخدمه دون منتوا Mantua . ومن أعماله الشعرية ملحمة « أماديجي » Amadigi ، وبطلها هو أماديس الغالي هذا البطل الاسطوري المشهور في ملاحم العصر الوسيط في أوروبا وفي هذه الملحمة حاول محاكاة اسلوب الشاعر العظيم اريوستو (١٤٧٤ ــ ١٥٣٣) مؤلف ملحمة «اورلندو غاضبا» وتغلب على ملحمة برنردو تاسو المبالغة في وصف العواطف . وبدءا في نظم ملحمة اخرى بعنوان « فلوريدانته » Floridante ، أتمها ابنه ، كما نظم الكثير من القصائد الغنائية .

ودرس توركواتو تاسو عند اليسوعيين في نابلي مما كان له اثر قوي في توطيد النزعة الدينية المتشددة عند توركواتو ، مما سيجعله يقع في مجرى حياته في أزمات دينية عاصفة . وفي سنة ١٥٥٤ وصل الى روما ، حيث عاش فترة من الوقت . وفي السنوات التالية عاش في أوربينو، وبادوا، وفينتسيا، وبولونيا، حيث درس القانون والفلسفة ، واللغات القديمة ، والرياضيات .

وفي سن السابعة عشرة نشر اول قصيدة ملحمية بعنوان : «رينلدو» Rinaldo واهداها الى الكردينال لويدجي دسته . واستدعاه هذا الاخير الى بلاطه في فرارا في سنة ١٥٦٥ . ورافقه تاسو في رحلته الى فرنسا في سنة ١٥٧٢ . وبعد عودته الحقه اخو الكردينال ، وهو الدوق الفونسو الثاني دسته ، بخدمته .

وكانت فرارا منذمدة موئلا للفن والعلم : فان رناته دسته Renata d'Este بذلت قصارى جهدها ، وهي أم الدوق الفونسو الثاني ــ من أجل التمكين للفن ــ والعلم في بلاطها ، خصوصا وفي فيرنتسه كان آل مدتشي ــ وهم أقل عراقة من آل دستة ــ في فيرنتسه .

وكانت باكورة انتاجه في بلاد فرارا قصيدة رعوية بعنوان « أمنتا » Aminta (سنة ١٥٧٣) مبتدئا بذلك نوعا شعريا .. سيكون له رواج كبير في عصره . كذلك بدأ في كتابة محاوراته الفلسفية بعنوان : « المحاورلت I Dialoghi » .

أمضى عشر سنوات ــ من سنة ١٥٦٥ الى ١٥٧٥ ــ في نظم ملحمته الكبرى : « أورشليم محررة » وموضوعها هو الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٦ ــ ١٠٩٩) التي قادها جودفروا دي بويون وانتهت باستيلاء الاخير على مدينة القدس ، ومن هنا كان العنوان الاول الذي وضعه تاسو لهذه الملحمة هو « جوفريدو » أي جودفروا

وتزعم هذه الاسطورة ايضا انه كان فى القصر خصم لتاسو يتآمر عليه ، وانه اذاع نبأ هذه العلاقة الغرامية بين تاسو والاميرة ليونورا ، مما حمل تاسو على تحديه للمبارزة ، وان اخوة هذا الخصم الثلاثة باغتوا تاسو وانقضوا عليه . لكنه مع ذلك تغلب عليهم . ولما علم الدوق الفونسو الثانى بهذا الامر امر بوضع تاسو فى السجن ، ولم ينقذ تاسو من السجن الا الفرار .

وقد قرأ جيته هذه الاسطورة فى ترجمة تاسو ، التى كتبها هينزه ونشرت فى مجلة Iris فى سنة ١٧٧٤ ــ ١٧٧٥ ، وهى بدورها استندت الى ترجمتين لحياة تاسو ، هما :

أ ــ حياة توركواتو تاسو ، تأليف جيوفاني باتستا مانسو ، نابلى سنة ١٦١٩ . وكان مانسو Manso قد عرف تاسو شخصيا .

ب ــ بحث كتبه لودوفكو انطونيو موراتورى Muratori ونشر فى المجلد العاشر من طبعة فينتسيا سنة ١٧٣٥ لمؤلفات تاسو .

وفي هذا البحث الاخير وردت الحكاية التى تزعم ان تاسو حاول ذات يوم ان يعانق الاميرة ليونورا ويقبلها بمرأى من رجال القصر ! وهذه الحكاية سيستغلها جيته فى المشهد الرابع من الفصل الخامس .

لكن ليس من المؤكد ان جيته عرف هذه الحكاية من بحث موراتورى هذا ، بل الارجح انه عرفها من ترجمة حياة تاسو تأليف سراسى Pierantonio Serassi الذى طبع فى روما سنة ١٧٨٥ .

* * *

ونعود لنتابع حياة تاسو فى بلاط فرارا ، فنجده محاطا بالاعداء الالداء والحساد المتآمرين على تدميره . ونذكر منهم :

أ ــ باتستا بنيا Battista Pigna وكان مؤرخ القصر ، لكنه سرعان ما توفى ، وحل محله تاسو نفسه ، رغم انه لا يصلح لهذه المهمة .

ب ــ جيوفانى باتستا جوارينى ، وهو شاعر وناقد ، وقد عارض رعوية تاسو : « امنتا » ــ برعوية من تأليفه عنوانها : « الراعى المخلص » IL Pastor fido

ج ــ الفيلسوف أنطونيو ــ مونتكاتينو Montecatino ، وكان كاتب الدولة فى القصر ، وكان أشد أعداء تاسو ضراوة وخبثا وبراعة فى حياكة الدسائس ضده . وقد استطاع الحصول على أدلة على قيام معاملات بين تاسو وآل مدتشى ، وأراد بها القضاء على مكانة تاسو عند دوق فرارا .

الى عداوة هؤلاء الاعداء والحاقدين ، يضاف نقد النقاد الذين تناولوا ملحمة تاسو الكبرى بالنقد والتجريح .

فكيف لا يؤثر هذا كله فى نفسية شاعر مفرط الحساسية ملتهب المشاعر سريع الانفعال مثل شاعرنا تاسو !

وكانت نتيجة ذلك امتلاء نفسه بالوساوس ، وشعوره العارم بالاضطهاد ، وبأن الجميع له بالمرصاد يريدون القضاء عليه ، حتى الخدم أنفسهم ظن أنهم مدسوسون عليه من قبل أعدائه للتجسس عليه . وحدث فعلا ذات يوم أن توجس أن خادما تصنت عليه ، فهجم عليه بالسكين . فحكم عليه الدوق بالحبس فى غرفته ، ثم بعث به الى أحد الاديرة . ومن هذا الدير فر تاسو الى أخته كورنليا سرساله Cornelia Sersale التى كانت تقيم فى سورنته . ومع ذلك عاد تاسو بعد مضى نصف عام الى فرارا ، لكن ليستأنف رحلاته الشاردة ، فسافر الى منتوا ، ويادوفا ، وفنتسيا وبيزاردو وبيمونته . وذهب الى تورينو حيث عمل فى خدمة فيلبودستـه Filippo d'Este . لكنه فر فى سنة ١٥٧٥ من تورينو وعاد مرة أخرى الى فرارا . غير أن الدوق لم يستقبله ، فراح يصب الشتائم على بلاط الدوق . فامر الدوق بايداع الشاعر فى مستشفى سانت أنا للامراض العقلية ، فى سنة ١٥٧٩ ، وبقى محتجزا فيه حتى سنة ١٥٨٦ أى طوال سبع سنوات .

لكنه فى أثناء سنوات حجزه هذه فى مستشفى سانت أنا نظم الكثير من القصائد ، وأتم تحرير كتاب « المحاورات » .

وفى سنة ١٥٨٦ استدعاه فتشنتسو جونزاجا ، أمير منتوا ، الى قصره ، وهنا أتم تاسو مأساة « الملك تورسموندو Torsiomondo » طبعت فى سنة ١٥٨٧ » .

وفى السنوات التالية ظل الشاعر يتنقل من مكان الى مكان ، لا يقر له قرار ، وتسوده الكآبة وتنهكه الامراض .

ثم سافر الى نابلى ، ثم الى روما . وفى نابلى بدأ قصيدة عظيمة بعنوان « العالم المخلوق » IL mondo creato . واقام فترة فى فيرنتسه ، ثم عاد الى روما حيث كتب « أورشليم مفتوحة » (أو - فتح اورشليم ») .

وأخيرا ذهب الى سورنته وهو على عزم تمضية البقية الباقية من عمره مغمورا فيها . لكن البابا كليمنته الثامن قرر تتويجه على الكابتول ، فاضطر تاسو الى العودة الى روما . لكنه توفى فى ٢٥ ابريل سنة ١٥٩٥ فى دير سانت اونوفريو Sant Onorfio وفيه دفن ، وكانت وفاته قبيل اليوم المقرر للاحتفال بتتويجه على الكابتول ، وهو فى سن الثانية والخمسين .

٢

اشخاص المسرحية

من حياة تاسو هذه التى أتينا على عرضها ، اخذ جيته كل شىء : ما هو تاريخي ، وما هو أسطورى .

لكنه اتبع فى هذه المسرحية - على عكس ما فعل فى مسرحية **جيتس فون برلشنجن** التى كان متأثرا ابان كتابتها بمنهج شيكسبير - نقول أنه اتبع فى مسرحية : **توركواتو تاسو** القواعد الكلاسيكية التى نسبت الى ارسطو واصبحت الشروط الاساسية للمسرح الفرنسى الكلاسيكى - فى القرن السابع عشر ، لدى كورنى وراسين ، وأهم هذه القواعد ما عرف باسم : « الوحد الثلاث » وهى الوحدة فى الزمان والوحدة فى المكان ، والوحدة فى الفعل :

فالزمان هو يوم واحد ، مما يتفق تماما مع قاعدة « وحدة الزمان » وهي المقدرة بأربع وعشرين ساعة ، والمكان واحد ، وهو القصر الريفى او قصر الترفيه المدعو باسم بلرجواردو Belriguardo ، احد قصور الترفيه التى كان يمتلكها دوق فرارا ، الفونسو الثانى .

والفعل واحد ، ان جاز الحديث هنا عن فعل : فكل ما هنالك حوار عاطفى حينا ، شعرى حينا آخر ، ذهنى حينا ثالث .

ثم ان جيته اختار من الاشـخاص الذين اتصلوا بحيـاة تاسـو اربعـة :

١ ــ الفونسو الثانى ، دوق فرارا .

٢ ــ ليونورا دسته ، اخت الفونسو الثانى ،

٣ ــ انطونيو مونتكاتينو ، كاتب الدولة لدى دوق فرارا ، اى وزيـره ،

٤ ــ ليونور اسانفتال ، كونتيسـة اسـكنديـنو .

وكلهم أشخاص تاريخية حقيقة كان لها دورها فى حيـاة الشـاعر تاسـو . ولم يضف جيته أى شخص غير تاريخى . فاذا شـئنا ان ننظر فى هـؤلاء الاشـخاص كما عرضهم جيتـه ، تبين لنا ما يلي :

١ ــ أما الدوق ، الفونسو الثاني ، فهو امير نموذجي من امراء عصر النهضة الايطالية ، هادىء الطبع ، محب للفنون ، واسع الثقافة ، ماهر فى ادارة شـئون امارته الصغيرة وسـط عـالم من الاطماع : أطماع الامبراطور كارل الخامس ، وملك فرنسـا فرنسوا الاول (١٥١٥ ــ ١٥٤٧) ثم هنرى الثانى (١٥٤٧ــ١٥٥٩) وشارل التاسع (١٥٦٠ ــ ١٥٧٤) وهنرى الثالث(١٥٧٤ــ١٥٨٩) وهنري الرابع (١٥٨٩ ــ ١٦١٠) ــ وأطماع البابوات الذين بسطوا سـلطان دنيويا الـى جانب سـلطانهم الروحي : بولس الثـالث (١٥٣٤ ــ ١٥٤٩) ويوليوس الثالث (١٥٥٠ ــ ١٥٥٥) وبولس الرابع (١٥٥٥ ــ ١٥٥٩) وبيوس الرابع (١٥٥٩ ــ ١٥٦٥) وبيوس الخامس (١٥٦٦ ــ ١٥٧٢) وجـريجوريو الثـالث عشر (١٥٧٢ ــ ١٥٨٥) وسـكسـتو الخـامس (١٥٨٥ ــ ١٥٩٠) وجريجوريو الرابع عشر (١٥٩٠ ــ ١٥٩١) وكليمنت الثـامن (١٥٩٢ ــ ١٦٠٥) وهـو الذى قرر تتويج شاعـرنا على ربـوة الكابيتـول .

ووجد الدوق فى الشاعر الشاب توركواتو تاسو شاعره الذى يرعاه ، ابتغاء ان يسـتمد من ذلك مجدا لنفسه ولامارته ، ولينافس به آل مدتشي الاقـل منه عراقة فى النبالة . وقد دلله الدوق ، وغفر له نزواته وبوادره الطفولية ، واندفاع عواطفه .

وفى النزاع بين تاسـو وبين خصمه الوزير انطونيو حاول الدوق ان يلتمس للشاعر وجه العذر ، ولم يعاقب تاسو بمـا قد جرى عليه العرف فى ذلك كالوقت جزاء وفاقا لتحديه لانطونيو

بالمبارزة ، على الرغم من الخدمات الجليلة التي انجزها للدوق في روما وسائر خدماته .

واذا كان قد رفض أن يرد الى تاسو مخطوطة قصيدته الكبرى ووعده بدلا من ذلك بارسال نسخة منها ، فقد كان ذلك تصرفا حكيما لصالح تاسو نفسه : فمن يدري وتاسو على هذا الحال من الجنون او شبه الجنون ، لعله يحرق هذا العمل الفذ !! انه بذلك انقذ لتاسو كنزه الثمين ، كما انقذ لنفسه عملا تتفاخر به امارته ، ومن اجله ابدى لتاسو ما أبدى من كرم ورعاية وانفق عليه ما أنفق من أموال .

٢ ـ أما ليونورا داسته ، أخت الدوق ، ومعشوقة تاسو المزعومة ، فهي البطلة الثانية للمسرحية ، بعد بطلها الاول تاسو : فهي تثير فينا الشفقة عليها في مأساتها : فامها اعتنقت مذهب كلفن وأدى ذلك الى نفيها ، وحرمانها من اولادها . فتربت بعيدة عن حنان الام ، وفي خجل من تحولها الديني ، وفي ظل اللعنة التي صبتها الكنيسة عليها .

وكانت فتاة على حظ وافر من الثقافة ، والحساسية الفنية ، مما ارهف شعورها بالمأساة .

واذا كان جيته قد ظلمها كما عرفها التاريخ ، فانه مجدها بما نسب اليها من عاطفة مشبوبة لكنها مكتومة نحو الشاعر الشاب ، وما أودع فيها من رقة مشاعر وعطف انساني . بيد انها ، والحق يقال ، لم تتخل ابدا عن وقارها والاجلال لمكانتها ، وفي لحظة التوديع القاسي عليها تقول له : « يجب على ان أتركك ، بيد ان قلبي لايمكن ان يفارقك » (الفصل الخامس ، المنظر الرابع) .

ولم تفارقها مهابتها حتى حين اندفع تاسو يعانقها ويقبلها ، اذ سرعان ماصاحت فيه مبهوتة : « ابعد عني » ! رغم انهما كانا وحدهما ، ولم يكن ثم أحد ، بعكس مافي الحكاية التي رواها موراتوري وأشرنا اليها من قبل ، وهي ان تاسو فعل ذلك على مرأى من رجال البلاط .

٣ ـ وفي مقابلها نجد سميتها الأخرى الكونتيسة ليونورا سانفتالي : فهذه امرأة لعوب ، خداعة ، خالية من الضمير ، فهي تحث تاسو على الابتعاد عن قصر فرارا ، لتستأثر به لنفسها في فيرنتسه ، فيتغنى بها بدلا من الاميرة . ولهذا لم تكن شخصيتها مما يثير التعاطف معها ، وسرعان ماينكشف امرها ، حتى حين

تتولى ــ بامر من الامير ــ مهمة التمهيد للمصالحة فيما بين تاسو وانطونيو .

لكنها مع ذلك جذابة ، لما فيها من نشاط وحيوية وفراهات نسوية .

٤ ــ اما أنطونيو فهو الطرف المقابل تماما لتاسو : انه الرجل العملي المحنك البارد الاحساس،الماهر فى عقد المفاوضات والصفقات الدبلوماسية ، الذى يخدم سيده بولاء راسخ بعيد عن الطنطنة الكاذبة والدعاوى المجانية . وهو ماكر خراج ولاج ، يحسن تدبير الدسائس ، واشاعة الغيظ فى الخصوم دون ان يبدو عليه النزوع الى الشر .

عباراته موزونة ، وكلماته مسمومة ، وبوادره محسوبة ، واعصابه باردة ، وهذه كلها انكى الاسلحة ضد من هو بطبعه مندفع، طياش ، مستطار الفؤاد ، نجى الوساوس ، مختل الاعصاب ــ مثل غريمه توركواتو تاسو .

لكن لماذا كان غريمه ، وشتان ماهما ؟

هذا هو العجيب فى طبائع الناس ! ذلك انه نفس على الشاعر عبقريته ، ومكانته عند الامير ، وكان يظن انه وحده الجدير باحتكار رضا الامير ، كما هو الشأن دائما بين رجال القصر فى كل مكان وزمان . ولم يكن فى طبع الشاعر الشاب الملتهب تاسو مايجنح به الى المراوغة والمطاوعة ، فما كان سلس القياد ، ولا جزوع الفؤاد يدارى مخافة الشر ، ويراوغ من فى يده البطش .

ان انطونيو تياه بما انجز من أعمال فى روما لدى البابا حيث زبانية الدهاء وابالسة الدسائس . فكيف يعود من هذه المعركة المظفرة فلا يجد أكاليل النصر مهيأة لتتويجه بها ، بل يرى على العكس من ذلك ان خصمه ــ هذا الشاعر النزق الشاب ــ هو الذى يظفر بالاكليل ، ومن يد من ؟ من يد الاميرة ليونورا ، والكونتيسه سانفتالى ! فكيف لايوغر صدره ولا يجيش بالفل قلبه ؟ !

٥ ــ اما تاسو فهو الفنان مجسدا ! فيه مافى أهل الفن من حمية تبلغ حد الرعونة ، وخشونة تصل الى مرتبة التوحش ، وارهاف حساسية مبالغ فيه الى أقصى درجة ، واعتداد بالعبقرية الى حد ينسى معه مقتضيات اللياقة والمعاملات بين الناس ودواعى المعاشرة ، ولا حدود لاندفاعه ، ولا قيود على نزواته ، ولا ضابط لاهوائه . وبينما يقول : « مباح مايسر » ، تقول الأميرة : « مباح مايليق » . وفى هذا يقوم التعارض الواضح بين كليهما .

وشخصية تاسو تطفى على المسرحية كلها ، الى درجة ان المرء يشعر بان سائر اشخاصها لم يوجدوا الا من أجل ابراز جوانب مختلفة من شخصيته ، والكشف عما فى حياته من عواصف عارمة وعواطف جياشة ، ولالقاء الضوء من مختلف الزوايا والكشافات على هذا العبقرى الغريب الاطوار، الذى ينضح بالفن فى كل مايصدر عنـــه .

٣
بين جيته وتاسو

وهذا يقودنا الى السؤال الثالث والأخير : ماذا قصد جيته بهذه المسرحية ؟ وماصلتها بحياته ؟

ان جيته يشير فى حديثه مع اكرمن (١٨٢٧/٥/٦) الـذى اقتبسناه فى بداية هذا التصدير الى مايؤذن فى ذهنه بوجود مشابه بينه وبين تاسو ، مشابه هي التى دفعته الى كتابة هذه المسرحية عنه . بيد انه لايريد منا ان ندفع هذا التشبيه بينهما الى تفاصيله الدقيقة .

فان دوق فرارا لايشابه تماما دوق فيمار الا فى القسمات العامة : رعاية العبقرية ، سعة الثقافة ، الانصاف فى المعاملة بين من يتولون خدمته .

وتاسو لايشبه جيته ، خصوصا جيته الذى اجتاز مرحلة فرتر Werther وتخلص من الوجدان المشبوب والانفعال العارم والنزوات المتقلبة .

انما هناك شبه بعيد بين ليونورا داسته ، وبين البارونة فون اشتين ، زوجة كبير سياسي دوق فيمار . وكان جيته قد عرفها عند نهاية سنة ١٧٧٥ وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، بينما كانت هي فى الثالثة والثلاثين واما لسبعة أولاد . لم تكن فاتنة الجمال ، لكنها كانت جذابة ، نبيلة المشاعر ، واسعة الثقافة ، فاشتعل قلب جيته غراما بها ، وراح يغازلها ، ويتغنى بها فى قصائده ملتهبة ، لكنها كانت من الفطنة والوقار بحيث تتملص منه دون ان تصده كل الصد . فلم يستطع امتلاكها ، بل فرضت هي عليه نوعا من الصداقة الغرامية التى لاتتجاوز الحب البرىء . كانت تهدىء من هيجانه ، وفى الوقت نفسه تتلاعب بمشاعره . وأذعن جيته لهذا الوضع . وحمده لها وجسده في مسرحيته « افيجينيا » التي حررها فى سنة ١٧٧٩/١٧٧٨ .

لكن روحه الجموح الشاعرة لم تذعن طويلا ، فراح من جديد يستأنف مناوشات قلبه ، لكن دون جدوى . فقد استطاعت البارونة الحصيفة وذلك في مارس ــ ابريل سنة ١٧٨١ ــ أن تضع حدا لوجدانه فتحصل منه على وعد بأن يتخلى نهائيا عن أن يطلب منها مالا تود هي السماح به فأسقط في يده ، وراح يتعزى بالفن عن خيبة رجائه ، فكان ان انكب علــى اتمام مســرحية تاسو التى وجد فى موضوعها شبيها بحاله وبمآل غرامه ، وكان قد بدأ التفكير فيها منذ أن ردته أول مرة فى ١٤ أكتوبر سنة ١٧٨٠ .

لكنه مالبث ان توقف عن السير فى كتابتها ، وبقيت شذرات الى أن عاد الى تذكرها فى ربيع سنة ١٧٨٦ حين شرع فى نشر طبعة كاملة من مؤلفاته . فأخذ هــذه الشذرات معه الــى ايطاليا فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٦ ، وحملها معه فى رحلته الى نابلي وصقلية فى ٢٢ فبراير سنة ١٧٨٧ ، ومع ذلك لم يلمسها ، وبقيت كما هي ، الى أن كان فى طريق العودة الى فيمار ، فنزل فى فيرنتسه (٢٣ أبريل ــ ١٨ يونيو) وهناك استأنف كتابة المسرحية فحرر ــ فيما يرجح مشاهد من الفصلين الرابع والخامس ، وهى تلك التى يعبر فيها تاسو عن أسفه لأنه مضطر الى ترك بلاط فرارا .

لكن المسرحية بقيت ناقصة ، واستطال بها الزمان فى الكتابة حتى استغرق شتاء سنة ١٧٨٨ وربيع سنة ١٧٨٩ . ولم يفرغ منها نهائيا الا فى بداية شهر أغسطس من عام ١٧٨٩ ، كما أعلن ذلك فى رسالة الى هردر بتاريخ الثانى من اغسطس ، فقال : « يحق لى أن أقول أنها تمت منذ يومين فقط ، لانه كان على أن أشتغل فى تحرير الفصلين الاخيرين » . وكان جيته قد أرسل الى الناشر جيشن Goschen فى ليبتسك فى ٢٢ يونيو سنة ١٧٨٩ المشاهد الاولى ، وفى ٢٩ يونيو خاتمة الفصل الاول ، فباشر الناشر طبعها . وظهرت الطبعة فى سنة ١٧٩٠ .

ولقد تجلى منذ البداية صعوبة تمثيل هذه المسرحية الشعرية على المسرح ، لأنها لم تكتب لتمثل لعامة الجمهور . ولهذا رفض جيته ان تمثل ، ولا حتى فى فيمار ، مدة طويلة . وعرضت على المسرح لأول مرة فى ١٦ فبراير سنة ١٨٠٧ ضد ارادته ، فقد اراد الممثلون ان يفاجئوه ، فدرسوها وادوا التجارب عليها بغير علمه . لم يحضر تمثيلها . لكنها نجحت نجاحا كبيرا ، أدهش جيته نفسه . وبين سنة ١٨٠٧ وسنة ١٨١٣ لم تمثل الاعشر مرات فى فيمار . ولم تمثل فى مسارح المانيا الاخرى لاول مرة الا فى سنة ١٨١٦ فى مسرح ببرلين ، وان كانت فرقة فيمار قد مثلتها بنجاح عظيم فى مدينة

ليبتسك وفى لوخشتيدت فى صيف سنة ١٨٠٧ . ثم أشرف جيته بعد ذلك على اخراجها أربع عشرة مرة . ولما مرض جيته فى مارس سنة ١٨٢٣ مرضا شديدا ، مثلث هذه المسرحية فى ٢٢ مارس سنة ١٨٢٣ ، تمجيدا له واحتفالا به ، ووضع اكليل على جبين تمثال نصفي لجيته طوال الفصل الذى يوضع فيه الاكليل على جبين تاسو .

وترجمت المسرحية الى الفرنسية فى سنة ١٨٢٥ ، ومثلت فى أحد مسارح باريس فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٢٥ . وطوال القرن التاسع عشر وهذا القرن احتلت هذه المسرحية مكانة بارزة متجددة باستمرار فى جدول مسرحيات (ربرترار) المسارح الكبرى فى المانيا والنمسا وبعض البلاد الاوروبية .

* * *

وكلنا رجاء فى أن تحتل مكانا فى المسرح العربى ، وان تأخر فى القيام بهذا الواجب أكثر من قرن ونصف ؟

توركوا تو تاسُو

تأليف: يوهان فلفجانج جيته

ترجمة : د. عبد الرحمن بدوي

العنوان الاصلي للمسرحيه

JOHANN WOLFGANG GOETHE

Torquato Tasso

EIN SCHAUSPIEL

PHILIPP RECLAM JUN. STUTTGART

شخصيات المسرحية

الفونس الثاني دوق فرارا (١)	Alfons der Zweite
ليونورا دسته (٢)	Leonore von Este
ليونورا سانفتاله كونتيسة اسكنديانو (٣)	Leonore Sanvitale
توركواتو تاسو	Torquato Tasso
انطونيو مونتكاتينو (٤)	Antonio Montecatino

مسرح الاحداث فى بلرجواردو Belriguardo قصر للهو .

---

١ ــ الفونسو الثاني ، دوق فرارا ، من بيت دسته ، حكم من سنة ١٥٥٩ الى ١٥٩٧ .

٢ ــ لينورا دسته (١٥٣٥ ــ ١٥٨١) : الاخت الصغرى لدوق فرارا الفونسو الثاني . لكن لم تثبت الوثائق التاريخية انها عشقت تاسو .

٣ ــ ليونورا سانفتاله ، كونتيسة اسكنديانو قدمت الى فرارا فى سنة ١٥٧٦ وكانت من اشد المعجبات بالشاعر تاسو .

٤ ــ انطونيو مونتكاتينو كان وزيرا للدوق الفونسو ، وخصما لدودا للشاعر تاسو وهؤلاء الاشخاص الاربعة اشخاص تاريخيون حقيقيون .

الفصل الاول

حديقة ، مزينة باعمدة هرمسية (١) عليها تماثيل نصفية للشعراء الملحمين في مقدم المسرح فرجيل عن يمين ، واريوستو عن شمال

المنظر الاول

الاميرة ، ليونورا

الاميرة : انت تنعمين النظر فيّ ، وتبسمين يا ليونورا ، ثم تنعمين النظر في نفسك وتبسمين ايضا . فما بالك ؟ انبئي صديقتك ! يبدو عليك الاطراق ، كما يبدو عليك الرضا

ليونورا : نعم ، يا اميرتي العزيزة . فانه يبهج نفسي ان ترى كلتانا الاخرى ها هنا بهذا الهندام الريفي فان الناس يحسبوننا راعيتين ترفلان في السعادة الصافية ، لان اعمالنا اعمال راعيات هانئات . فنحن نضفر اكاليل : هذا اكليل ذو ازهار منوعة الالوان . ينتفخ بين يدى باستمرار ، اما انت ، يا من انت اسمى روحا وانبل قلبا ، فقد اخترت الغار الرقيق الناحل .

الأميرة : هذه الافنان التى ضفرتها وانا احلم ، سرعان ما عثرت على رأس جدير بها :
انى اتوج بها فرجيل ، اعترافاً بجميله .

(تتوج تمثال فرجيل)

ليونورا : أما أنا فأضع اكليلي الثري الضاحك على الجبين العالي للاستاذ لدوفكو(٢)

(تتوج تمثال أريوستو)

ليتقبلن من الربيع الجديد نصيبه الجدير به ، وهو الذي لن تذبل فكاهاته أبداً .

الأميرة : كم كان لطيفاً من أخي ان يجيء بنا هذه الايام إلى الريف . ان في وسعنا هكذا أن نكون ملك أنفسنا ، وان تعود بنا الأحلام ، طوال ساعات ، إلى عصر الشعراء الذهبي . وأنا أحب بلرجواردو ، إذ أمضيت فيها ملاوة من شبابي وأنا أرفل في السرور ، وهذه الخضرة الجديدة وهذه الشمس تذكراني بمشاعر ذلك الزمان .

ليونورا : نعم ! ان عالماً جديداً يحيط بنا ! وظل هذه الأشجار الدائمة الخضرة قد صار ينبوعاً للسرور . وخرير هذه النافورات ينعش نفوسنا . والأغصان الناشئة وقد هدهدها نسيم الصباح تترجح في رقة وهدوء . وفي الزّهْراوات(٣) ترنو الينا الأزهار في مودة بعيونها التى تشبه عيون الأطفال . والبستاني يكشف ، مطمئناً ، عن الدفيئات (٤) الشتوية لشجيرات البرتقال والليمون . والسماء تنشر زرقتها الساجية على رؤوسنا ، وفي الأفق ينحل ثلج الجبال البعيدة إلى بخار رقيق .

الأميرة : كنت سأرحب بالربيع وأنا جذلي ، لو انه لم يسلبني صديقتي .

ليونورا : لا تذكريني ، أيتها الأميرة ، في هذه الساعات السعيدة بقرب ساعة رحيلي .

الأميرة : ان النعيم الذي ربما تركينه ها هنا ، ستجدينه مضاعفاً

في تلك المدينة الكبيرة التى تسافرين إليها .

ليونورا : انه صوت الواجب ، وهو أيضاً صوت الحب هو الذي يدعوني إلى الزوج ، المحروم من وجودي منذ وقت طويل . وسآخذ إليه ابنه الذي نما وترعرع بسرعة في هذا العام ، وأشاركه في سروره الأبوي . ان فيرنتسه عظيمة رائعة ، لكن قيمة كل كنوزها المتكدسة لا تبلغ قيمة جواهر فِرّارا . ان الشعب هو الذي صنع عظمة فيرنتسه . اما فِرّارا فتدين بعظمتها لامرائها .

الأميرة : وتدين أكثر للرجال الممتازين الذين ساقتهم الصدفة إلى اسوارها ، وكان من سعادة جدها انها احتضنتهم .

ليونورا : الصدفة تفرق ما جمعت بسهولة . والإنسان النبيل يجتذب أناساً نبلاء ويقدر على الاحتفاظ بهم ، وهذا ما فعلتموه . من حول أخيك ومن حولك تتجمع القلوب الجديرة بكم ، وأنتم جديرون بأسلافكم العظماء .

ليونورا : وها هنا شع نور العلم في حبور ، واضاء الفكر الحر ، في وقت كان العالم من حولكم لا يزال غارقاً في ظلمات البربرية الثقيلة . كنت لا أزال طفلة حين قرع سمعي اسماً هرقل(٥) ، وهبوليت دسته وكان أبى آنذاك يثنى على فرارا ثناءه على روما ، وعلى فيرنتسه . وطالما هفت نفسي إليها ، وهاأنذي حاضرة فيها . هنا وجد بترركه ملاذا له واهتماماً به (٦) ، ووجد اريوستو نماذج ابطاله . ولا تذكر ايطاليا رجلاً عظيماً واحداً لم يكن ضيفاً على هذا البيت . وانها لضيافة عظيمة الفوائد تلك التى تمنح للعبقرية ، ففى نظير الهدية التى

تعطونها للعبقرية ، فإنها تترك لديكم هدية أجمـــــل
ذلك لأن الأرض التى تطؤها الروح النبيلة تصبـــــح
مقدسة ، وصدى كلماته وأفعاله يظل بعد قرون حيــاً
في أسماع أحفادنا .

الأمــيرة : احفادنا ، نعم إذا استشعروا ما تستشعرين . وطالمـــا
حسدتك على هذه السعادة .

ليونورا : هذه السعادة التى تستمتعين بها على نحو لا يقدر عليه
إلا الاقلون ، ودون ضجيج ولا مزيج . وإذا كان قلبي
الفياض يدفعني إلى الأفصاح فجأة عما استشعره بشدة ،
فانك انت تستشعرينه على نحو أفضل ، لأنك تستشعرينه
بعمق ولا تفصحين عنه . انت لا تنبهرين بلمعان اللحظة
الخاطف ، ولا تعيرين اهتماماً لمغريات صواريخ الروح ،
والملق الذي يسعى بمهارة إلى التسلل حتى سمعك يضيع
جهده عبثاً ، وشعورك يظل راسخاً صامداً ، كما أن
ذوقك يبقى صادقاً ، وحكمك مستقيماً ، انت تهتمين
دائماً بالعظمة ، وتقرين بها ، وتتعرفين نفسك فيها .

الأمــيرة : لا ينبغي لك أن تستري بثوب الصداقة الواثقة هــــذا
التملق الزائد عن الحـــــد .

ليونورا : الصداقة عادلة ، وهي وحدها قادرة على تعرف مدى
فضلك ، وإذا أردت أن أعزو إلى الظروف والحظ
نصيبها في ثقافتك فإن هذه الثقافة انت تملكين ناصيتها ،
وأنت من أنت في نهاية الأمر ، والعالم يمجدك ، كما
يمجد أختك ، إذ يضعكما في مرتبة أعلى من مرتبة جميع
النساء المشهورات في عصركما .

الأمـــيرة : هذا يا ليونورا ، لا يؤثر في نفسي ، حين أفكر في ضآلة شأني ، وان هذا الشأن الضئيل أدين به لآخرين . فمعرفة اللغات القديمة والروائع التى خلفها لنا الأوائل ــ إنما أدين بها لامي (٧) ، اما العلم واستقامـــــة الحكم فلم تعدلها فيهما أية بنت من بنتيها الاثنتين ، وإذا كان لإحداهن أن تقارن بها ، فهذا الشرف لا تنالــــه إلاّ لوكرتسيا (٨) من غير شك . ولهـــذا أؤكد لك أنني أعد ميزة وفضلاً خاصاً بي ما منحتنى ايـــاه الطبيعة والحظ . اني أسرُّ حين أسمع الناس العقلاء يتحدثون وحين أفهم مقاصدهم وآراءهم . وسواء تعلق الأمـــر بحكم على إنسان ينتسب إلى الزمان القديم وعلى قيمـــة أفعاله ، أو بعلمٍ نـَمـّته التجربة فصار نافعاً للإنسان لأنه يسمو به ، وايا ما كان الاتجاه الذي تتخذه أحاديث هذه العقول النبيلة . فاني أتـــابعه بلذة لأنه ميسور لي . وأحب أن أشهد مجادلات العقلاء حين يتناقشون فـــي القوى الرقيقة الرهيبة معاً التى تحرك قلوب النـــاس فتكشف أصواتهم البليغة عن مفاتنهم ، وحين تصير شهوة المجد والفتوحات الواسعة للامراء موضوعـــــاً لتأملات المفكر ، ــ وحين نستفيد ونتعلم من المهارة اللطيفة التى يستثمرها الإنسان البارع بلطف ، بدلاً من أن تفضى بنا إلى الضلال .

ليونورا : ثم ، بعد هذه اللذات الجادة ، يستريح سمعنا وقلبنـــا على قوافي الشاعر الذي يبث في نفوسنا بنبراته الحلوة اسمى العواطف وأنبلها . ان روحك العالية تحيط

بمملكة شاسعة ، أما أنا فإن ما أفضله هو أن أتوقف في جزيرة الشعر عند خمائل الغار .

الامـــيرة : في هذه البلاد الجميلة ــ هذا على الاقل ما اكدوه لي ــ الاسى هو الاوفر نموا . وعلى الرغم من ان ربات الفنون Musen عديدة هناك ، فمن النادر ان ينشد المرء بينهن صديقة ورفيقة في اللعب ، انما ينشد بالاحرى الشـــاعر الذى يبدو انه يتجنبنا بل ويهرب منا ، ويبدو انه يسعى الى شيء مجهول لنـــا ، وربما مجهول له هو ايضا ، وكم سيكون حظنا سعيدا لو التقى بنا في الوقت المناسب ، وتعرف فينا ، وقد انجذب فجأة ، الكنز الذى ظل يبحث عنه في العالم الفسيح منذ وقت طويل دون ان يعثر عليه .

ليونورا : لا أملك الافلات من مزاحك . انه يقصدني ، من غير شك ، لكن الجرح ليس عميقا . اني امجد كل ذى فضل ، وانما أنا انصف تاسو . ان عينه لا تكاد تتوقف على مشاهد هذه الارض ، وسمعه يدرك انسجام الطبيعة ، وقلبه يتقبل وثائق التاريخ ووقائع الحياة برفق وبدون ابطاء وباخلاص متكافيء ، وروحه تضم شمل العناصر المشتتة المتنائية ، وعاطفته تشيع الحياة في الجماد . وكثيرا ما اضفى النبل على ما يبدو لنا تافها ، وما نغالي نحن في قيمته لا قيمة له عنده . وفي الدائرة السحرية الخاصة به يتقدم ويجذبنا اليه للمشاركة الوجدانية واياه : يبـــدو كأنه يقترب منا ، بينا هو بعيد ، ويبدو انه يتأملنـــا ، وربما يرى بالنيابة عنا روائع عبقريته .

الامـــيرة : لقد وصفت بلطف ورقة الشاعر الذى يحلق في ملكوت

الأحلام العذبة . لكن يبدو لي ان الحقيقة الواقعية هي الأخرى تؤثر فيه بقوة وتمسك به بشدة . والقصائدالجميلة التي نجدها ، بين الفينة والفينة ، مربوطة في الأشجار التي تعشقها ، والتي تشبه التفاحات الذهبية فتخيل لنـــا اننا بازاء حديقة هسبريدس(٩) جديدة ، فاغمةالعطور — ألا ترين فيها الثمار اللطيفة لحب عامر بالاخلاص ؟

ليونورا : وانا ايضا اعجب بهذه الاوراق (١٠) الجميلة . وهو يجد في عبقريته الثرية ما يمجد به صورة واحدة في كل اشعاره . فهو تارة يرفعها الى السماء المرصعة بالنجوم ، محيطا اياها بهـــالة من النور الباهر ، ويركع خاشعا ، مثل الملائكة الراكعين على الغيوم ، أمام الصورة التي ابتدعها ، وتارة أخرى يقتفي أثر هذه الصورة مسترقا الخطى خلال المروج الساجية ، ومن الازهار التي يقطفها يضفر اكليلا ، واذا ابتعدت الصورة المعبودة ، جعل الدرب الذى مشت عليه بقدمها اللطيفة دربا مقدسا . يختبيء في الاوراق مثل البلبل ، ويستنبط من قلبه المتعطر بالعشق شكايات مطربة تملا الجواء والخمائل . وألمــه الذى يستروح منه السحر ، وحزنه الذى هو غبطــة تسحر الآذان — يجران اليهما القلوب .

الامـــيرة : وحين يمنح اسما لموضوع اعجابه ، يمنحه اسم : ليونورا(١١) .

ليونورا : أليس هذا اسمك أنت ، كما هو اسمي أنا ؟ لا أود له ان يتغنى باسم آخر . وانا سعيدة لكونه يستطيع ،بواسطة هذا الاشتراك في الاسم ، ان يستر العاطفة التي تلهمينها

اياه . وسعيدة ايضا بانه وهو ينطق بهذا الاسم ، ذى النبرة العذبة ، يتذكرني أنا الاخرى . وليس الامر ها هنا أمر عشق يدّعي الاستيلاء الطاغي على موضوع ،ويريد ان يستأثر به وحده ، وبغيرة يمنع ان يتطلع اليه أحـــد غيره . انه حين يستغرق في فضلك وهو يتأملك نشوان ، فانه من غير شك يجد لذة ايضا في التفكير فيّ أنا . انا الاخف جوهرا . انه لا يعشقنا نحن — واغفرى لي ان اقول ذلك — انه يقتطف من كل الافلاك ما يعزوه الى اسم وحيد ، هو اسمينا ، ويجعلنا نشارك في شعوره ، ونحن يبدو لنا اننا نحب هذا الرجل كما هو ، مع اننـــا لا نحب فيه الا ارفع المثل العليـــا .

الامـــيرة : انت من ذوات البسطة في العلم بهذا الامر ياليونـــورا، لكن كل ما تقولينه لى لا يكاد يمس سمعى ، ويصعب عليه ان ينفذ في داخل روحى .

ليونورا : أنت يا تلميذة افلاطون ، لا تفهمين ثرثرة من هـــى ناشئة ثقيلة الفهم ؟ لابد اذن أن أكون مخطئة كل الخطأ. كلا ، ان كنت مخطئة فليس خطئي تاما . انا متأكدة من هذا . في هذه المدرسة لا يتجلى الحب — كما هو في العادة — على هيئة طفل مدلل . بل هو الفتى الذى اقترن بسوخيه (١٢) وله مكانه وصوته في مجلس الالهة . انه ليس الشاب الجموح الآثم الذى يطير غير مستقر مـــن قلب الى قلب ، ويستسلم لضلال عذب فيتعلق بغتـــة بالجمال ، والمظهر المغرى ، ويكفر عن النشوة العابرة بالتعزز والمـــلال .

الامـــيرة : ها هو ذا أخي قادما . فلا نكشفن له عن مجرى حديثنا : والا وقعنا فريسة لمزاحه كما ان ثيابنا لابد قد استهدفت لتهكمـــه .

المنظر الثاني

الشخصان المذكوران من قبل ، الفونســو

الفونسو : أنا أبحث عن تاسو ، لكنى لا اجده في أى مكان ، حتى ولا في صحبتكما . ألا تستطيعان انبائي بنبأ عنه ؟

الامـــيرة : لم أره بالامس الا قليلا أما اليوم فلم أره مطلقا .

الفونسو : انه لعيب قديم فيه ان ينشد الخلوة بدلا من الجماعـــة : واذا كنت اغفر له هروبه من جمهور الناس الصاخب المتنوع ، وايثاره الاماكن المنعزلة الساكنة التى يستطيع فيها ان يتحاور مع عبقريته بحرية ، فاني لا استطيع المضى الى حد موافقته على الهرب من دائرة اصدقائه .

ليونورا : اذا لم أكن مخطئة ، فانك ايها الامير ، ستحول لومك هذا الى مديح مبتهج عما قليل . لقد لمحته اليوم مـــن بعيد : كان معـــه كتاب والـــواح ، وكان يكتب ، ويتمشى ، ثم يعود للكتابة . وفي وسعى ان استنتج من كلمة القى بها إلىّ بالامس عابراً أنه يؤذن بالفراغ من كتابه . ولم يبق عليه الا ان يصحح بعض الملامـــح الدقيقة ، كما يستطيع اخيرا ان يقدم قربانا جديـــرا بكرمك الذى تجلت له منه شواهد عديدة .

الفونسو : مرحبا به في اليوم الذى يقدمه إلىّ ، وسأبرىء له ذمته حينذاك لوقت طويل . وبقدر ما أنا مشوق الى مؤلفه ،

فان كتابه العظيم لا يمكن الا ان يملأ نفسي سرورا من عدة نواح ، بهذا القدر ايضا اشعر بتزايد لهفتي ونفاد صبري . انه لا يفرغ منه ، ولا يفلح في انجازه وهو مشغول دائما بتنقيحه ، يتقدم ببطء . وفجأة يتوقف من جديد . انه يخيب الرجاء . والمرء يتضايق حين يرى المقدمة التي كان يظنها قريبة ، يراها وقد تباعدت الى المستقبل النائي .

الاميرة : اما عن نفسي ، فاني اثني على التواضع وعلى القلق اللذين يتقدم بهما نحو الهدف خطوة فخطوة . انه يفضل حماية ربات الفن فقط . تنتهي الابيات الشعرية بأن تتسلسل في مجموع راسخ ، وهذا هو الاهتمام الوحيد الساري في نفس تاسو ، ان قصيدته يجب ان تؤلف كُلاً منسجما . لا يهمه ان يكدس الحكايات على الحكايات ، الحكايات التي تسحر وتسلي ، لكنها في النهاية لا تنتج الا وهما تبدد في الهواء . مثل الخواطر التي لا رابط بينها . دعه اذن يا أخي ! فان قيمة العمل الفني الجيد لا تقاس بالوقت الذي استغرقه انجازه ، لكي يجد الخلف بدورهم متعة فيه ، فان معاصري الفنان يجب عليهم ان يعرفوا كيف ينسون انفسهم .

الفونسو : لنضم مساعينا ، يا اختاه العزيزة ، كما فعلنا مرارا لصالحنا المشترك . اذا أنا افرطت في الحماسة ، فمارسي انت فعلك المهدّئ ، وحين تصبحين ساكنة جدا ، سأتولى انا الاثارة . وعن هذا الطريق لربما رأيناه فجأة يبلغ الهدف ، الذي تمنينا طويلا ان نراه قد بلغه .

هنالك سيدهش وطننا ، وسيدهش العالم من عظمة العمل الذى انجز . وسأنال انا نصيبي من المجد ، اما هو فسيدخل في الحياة العظيمة . ان الروح النبيلة لا يمكن ان تنمو نموا كاملا في دائرة ضيقة . والوطن والعالم ينبغي عليهما ان يحدثا اثرهما فيه . وعليه ان يتعلم كيف يتحمل المديح والاستهجان . وعليه ان يعرف نفسه جيدا ، وان يعرف الآخرين كذلك . ولاتهدهدنه الخلوة بعدُ باوهامها الخداعة . ان العدو لايريد — والصديق لاينبغي عليه — ان يتساهل معه . هنالك يمارس الفتى قواه في النضال ، ويمتلىء شعورا بذاته ، وعما قليل يحس بانه رجل .

ليونورا : وهكذا ، ياأيها الامير ، ستتوج النعم التى منحتها اياه عن كرم جم ان القريحة تتكون في الخلوة ، أما الخلق فيتكون في تيار العالم . ألاليته يستطيع تكوين خلقه ، مثل فنه ، بفضل دروسك ! ألاليته يكف عن الهرب من الناس ، ألاليت عدم الثقة لايتحول في النهاية الى فزع وكراهية !

الفونسو : لايفزع من الناس الا من لايعرف الناس ، ومن يهجرهم سرعان مايسيء معرفتهم . وتلك حال تاسو ، وهكذا يصير القلب الحر ، شيئا فشيئا ، فريسة للتشويش ويفقد حريته . انه كثيرا مايقلق على رضاى اكثر مما ينبغي ، وهو سيء الظن بالكثير من الناس ، مع انهم ، فيما أعلم علم اليقين ، ليسوا أعداءه. ولو حدث ان ضاعت رسالة ، او فارقه خادمه ليعمل في خدمة سيد آخر ،

أو اختفت ورقة من أوراقه ، فانه يتصور في الحال ان هناك مؤامرة مدبرة ، ويرى الخيانة والغدر يعملان سرا على هلاكه .

الاميرة : لاتنس ، ياأخي المحبوب ، ان الانسان لايستطيع ان يفترق عن ذاته . لو حدث لصديق يصاحبنا في الطريق أن قدمه جرحت ، فاننا لانتردد في ان نهدىء في السير وان نعيره عن طيب خاطر سندا من ذراعنا .

الفونسو : الافضل من هذا ان نستطيع علاجه ، وان نحاول معه العلاج الذى نصح به الطبيب الحاذق ، واذا شفي نواصل معه السير فرحين في الطريق الجديد من حياة بغير هموم ومع ذلك أرجو ، ياعزيزتاى ، الا يستطيع احد ان يتهمني بانني كنت له طبيبا قاسيا . اني لا ادخر وسعا في ان أبث في نفسه الشعور بالامان والثقة . وكثيرا ماأبدى له أمام الكثير من الشهود ، عن علائم رضاى الواضحة . . واذا شكالى من شيء ، آمر في الحال باجراء تحقيق ، مثلما فعلت ذلك حينما اعتقد ، مؤخرا ان باب غرفته قد اقتحم . فان لم يسفر التحقيق عن شيء ، فاني اعرض عليه الحالة ، بهدوء ، كما اراها ، وكما لابد من التمرن على كل شيء ، فاني امرّن نفسى على الصبر مع تاسو ، لانه يستحق ذلك ، وانا أعلم انكما لاتطلبان الا ان تساعداني . لقد اتيت بكما الى الريف ، لكنني سأعود الى المدينة ، هذا المساء نفسه . وسترىان انطونيو لمدة لحظة ، انه قادم من روما ، وسيحضر لرؤياى . وعندنا امور كثيرة للمناقشة فيها

وتسويتها . هناك الكثير من القرارات التى يجب اتخاذها وكثير من الرسائل التى يجب كتابتها : وكل هذا يقتضى ان أعود الى المدينة .

الامـــيرة : هل تسمح لنا بمرافقتك الى هناك ؟

الفونسو : كلا . ماعليكما الا ان تبقيا في بلرجواردو Belriguardo واذهبا معـــا الى كونساندولى Consandoli واستمتعا بالايام الجميلة كما يحلو لكما .

الامـــيرة : الا تستطيع حقا ان تبقى معنا ؟ ألا تستطيع ان تسوى شئونك هاهنا كما تسويها في المدينة ؟

ليونورا : أتختطف منا انطونيو بهذه السرعة ، بينما عنده الكثير من الاشياء التى يحكيها لنا عن روما ؟

الفونسو : لا يمكن يا اطفالي ، هذا لا يمكن ، لكنني سأعود به ، متى استطعنا ذلك . وحينئذ سيقص عليكما حكاياته ، وستساعداني على مكافأته . لانه بذل مجهودا كبيرا في سبيل خدمة مصالحي . وبعد ان يقول كلانا للآخر كل شيء ، فللجمهور ان يحضر ، وللسرور ان ينتشر في حدائقنا ، وليسمح لي كما يقضي الانصاف ، ان القي تحت الظلال الوارفة جمالا فنيا طالمـــا بحثت عنه .

ليونورا : كصديقات صالحات ، سنغمض أعيننا .

الفونسو : وفي مقابل ذلك ، كما تعرفون ، فاني قادر على التسامح .

الامـــيرة : (متجهة صوب أعماق المسرح) منذ مدة وانا اشـــاهد تاسو يقترب . انه يتقدم بخطوات بطيئة ، ثم يتوقف بغتة ، كأنه متردد ثم يمشي صوبنا بخطوة اسرع ، وها هو ذا من جديد يتوقف .

الفونسو : لا تعكروا عليه صفو احلامه ان كان يتأمل ويؤلف ، دعوه يواصل طريقه .

ليونورا : كلا ، لقد رآنا ، انه قادم الينا .

المنظر الثالث

الاشخاص السابقون ، تاسو

تاســو : (ممسكا في يده بكتاب مجلد بالبرشمان) أتيت بخطوات بطيئة محضرا لك كتابا لا أزال مترددا حتى الان في تقديمه اليك . اني لاعلم جيدا انه لا يزال ناقصا . بالرغم من انه يمكن ان يبدو كأنه تام . لكن ان كنت قــد ترددت طويلا في تقديمه اليك ناقصا على هذا النحو ، فان خوفا جديدا يتملكني اليوم : ومع ذلك لا أود ان أبدو خائفا خوفا مفرطا ، ولا أود ان أبدو ناكرا للجميل ولما كان الانسان لا يستطيع الا أن يقول : « هأنذا ! ! كيف » يرأف بــه اصدقاؤه ويرضون عنه ، فكذلك من ناحيتي كل ما استطيع ان اقوله هو « تقبل مؤلفي ! » (يقدم اليه المجلــد) .

الفونسو : هديتك تفاجئني ، وانت تجعل من هذا اليوم الجميــل عيدا . واخيرا هأنذا امسكه بين يدي . وبمعنى ما استطيع ان أقول انه لي . ومنذ وقت طويل كنت اتمنى ان أراك تقدر ان تقول أخيرا : « توقف ! كفى ! » .

تاســو : ان كنتم راضين ، فالمؤلف كامل . لانه ينتسب اليكم من جميع النواحي . وحين كنت افكر في المجهود الذى كلفني ، وحين كنت أتطلع الى الخطوط التي تدبجها براعتي . كان في وسعي ان أقول : « هذا عملي » لكن

لمـــا انعمت النظر فيما يعطي هذه القصيدة قيمتها الحقة ومكانتها ، اعترفت بوضوح انني انما ادين بها لكم وحدكم . واذا كانت الطبيعة ، بنزوة من نزواتها التي يوحي بها ثراؤها ، عن مودة قد زودتني بموهبة الشعر الحلوة ، فان الحظ ذا الاهواء ، بعنف وحشي قد دفعني بعيدا عنه ، واذا كان الكون الجميل ، بكل مبـــاذخ ثرائه ، قد اجتذب نظرات الطفل ، فان قلبه الشـــاب سرعان ما احزنته محنة أبويه العزيزين ، المحنة التي لا يستحقونها . وحين تفتحت شفتاه للانشاد ، أفلت منهما نشيد حزين ، وقصدا ثدى كانت تتغنى في استحياء بآلام أبي ، وعذاب أمي . وانت وحدك انتزعتني من الحياة الضيقة التي كنت احياها ، وعرفتني بحرية محظوظة انك أنت الذى خلصتني من الهم ، واعطيتني ذلك الاستقلال الذى مكن نفسي من التفتح بنبرات ملؤها الثقة ، واى مدائح ينـــالها الان عملي ، فاني أدين لك بها ، لان العمل هو من اجلك .

الفونسو : للمرة الثانية تستحق أنت كل مديح ، وتشرف نفسك عن تواضع وتشرفنا نحن معا .

تاســـو : آه ! لو كنت استطيع ان أقول بأى حماسة أحس بانه منكم وحدكم تلقيت ما اقدمه لكم ! والشاب الذى لم تبرزه مأثرة من المـــآثر — هل في نفسه وجد مـــادة قصيدته ؟ والمهارة في قيادة الحرب بقرارات سريعة — هل هو الذى تخيلها ؟ وفن السلاح الذى يبديه كل بطل بقوة في اليوم الذى حدده المصير ، وحكمة الزعيم ،

وشجاعة الفرسان ، والصراع بين الحيلة واليقظة . ألست أنت ، أيها الامير الحكيم الشجاع ، هو الذى أوحيت الي بها ، كما لو كنت جني الصالح ، السعيد بالكشف عن طبيعته السامية التي لا يبلغ شأوها أحد ، بواسطة صوت كائن فان ؟

الامـيرة : والآن تمتع بالعمل الذى هو مصدر سرورنا .

الفونسو : أسعد بمدائح كل الاخيار .

ليونورا : أسعد بمجدك الشامل .

تاسـو : حسبي جزاء في هذه اللحظة . فيكم وحدكم كنت أفكر وانا أتأمل واكتب : رضاكم كان أقصى منـاى ، وامتاعكم كان منتهى غايتي . ومن لا ير العالم في اصدقائه ، لا يستحق ان يعرفه العالم . ها هنا وطني ، ها هنا الدائرة التي تود أن تتلبث فيها روحي . ها هنـا اصغي ، ها هنا ألاحظ اقل علامة ، ها هنا اسمع صوت التجربة والعلم والذوق السليم ، نعم ، ها هنا اشـاهد تحت بصرى العالم الحاضر ، والعالم الآتي . ان الجمهور يضلل الفنان ويخيفه : وفقط من يشهد ، ومن يفهم ويحس مثلك ، هو وحده الذى ينبغي له ان يحكم وان يكافىء !

الفونسو : اذا كنا نمثل العالم الحاضر والعالم الآتي . فلا يليق بنـا ان نتقبل هديتك دون ان نفعل شيئا . ان العلامة الجميلة التي تشرف الشاعر ، والتي يراها البطل نفسه — المحتاج دائما الى نشيد — معقودة حول رأسـه دون ان يستشعر حسدا ، اني ابصرها هنا على جبين سلفك العظيم (يشير

بيده الى تمثال فرجيل) هل الصدفة ، أو جني خير هو الذى ضفر هذا الاكليل واتى به هنا ؟ انه لا يتجلى أمام نظراتنا عبثا . بل اني أسمع فرجيل يقول لنا : « لمـــاذا تمجدون الموتى ؟ ألم ينالوا نصيبهم من الجوائز والمسرات حين كانوا أحياء ؟ اعجبوا بنا ، مجدونا ، لكن اعطوا الاحياء ايضا ما يستحقونه من نصيب . صورتي المرمرية حسبها ما نالت من التتويج — أما الغصن الاخضر فينتسب الى الحيـــاة . » .

(الفونسو يشير الى اخته فتأخذ الاكليل من تمثال فرجيل وتقترب من تاسو . تاسو يتراجع خطوة الى الوراء)

ليونورا : أنت تمتنع ؟ انظر أى يد تقدم اليك الاكليل الجميـــل الخـــالد !

تاســـو : آه ! دعوني أتردد ! لاني لا اعرف كيف سأستطيع ان أعيش بعد لحظة كهذه .

الفونسو : ستعيش مستمتعا بالكنز الرائع الذى يخيفك لاول وهلة .

الامـــيرة : (ممسكة بالاكليل في الهواء) امنحني ، يا تاسو ، السرور النادر لان اقول لك بغير كلمات ما يعتلج في نفسي .

تاســـو : من يديك الثمينتين أتقبل راكعا — الحِمْل النبيل على رأسي الضعيف .

(يركع ، الاميرة تضع الاكليل على رأســـه)

ليونورا : (وهي تصفق) يحيا من يتلقى اكليله الاول ! وليكن الأكليل لائقا بالمتواضع .

(تاســـو ينهض)

الفونسو : هذا الاكليل ليس الا ارهاصا رمزيا بالاكليل الذىسيزين رأسك فوق الكابتول(١٣) .

الامـيرة : هناك ستحييك اصوات رنانة ، اما هنا فالصداقةتكافئك بصوت خنيض .

تاسـو : اوه ! انزعيه من جبهتي . انه يحرق شعرى ! مَثَلُه مَثَلُ شعاع من شمس محرقة يتسلط على رأسي ، انه يحرق قوة التفكير في رأسي . الحمى تجعل دمي يغلي . عفوا ! هذا أكثر ممـا يجب !

ليونورا : بالعكس ، هذا الغصن يحمي رأس الانسان الذى ينبغي عليه ان يتجول في مناطق المجد المحرقة ، انه ينعش جبينه

تاسـو : لست جديرا بالاحساس بهذا الانعاش الذى لا تلائم نسمته الخفيفة الا جبين الابطال . أيتها الالهة ، انزعوا هذا الاكليل ، أو ارفعوه الى مجد السموات بين الغيوم ، حتى يحلق عاليـا واعلى فأعلى دون ان يصل اليه شيء ! ولتكن حياتي سيرا أبديا للاقتراب منه .

الفونسو : ان من يظفر وهو لايزال في ريعان الشباب بالخيرات النبيلة في هذه الحياة ، يتعلم منذ وقت مبكر كيف يتعرف علو قيمته ، ومن ينعم في سنوات صباه لايتخل في مجرى حياته ، عما اكتسبه ، ومن يملك يجب ان ان يكون مسلحا .

تاسـو : ومن يرد أن يتسلح يجب عليه ان يشعر في صدره بحضور قوة لن تتخلى عنه أبدا . واأسفاه! في هذه اللحظة نفسها هذه القوة تتخلى عنى ! في النعيم تترك لى القوة الفطرية التى علمتنى أن أناضل بثبات ضد الشقاء . وبكبرياء

ضد الظلم . فهل السرور والنشوة في هذه اللحظة حلا
النخاع في عظامي ؟ ان ركبتي تنحنيان ! ومرة اخرى
تريني . أيتها الاميرة . راكعا أمامك . حققي رجائي
وانتزعى هذا الاكليل من جبيني ! لعلى أستشعر لذة
حياة جديدة . مثلما يحدث حين الخروج من حلم جميل.

الاميرة : اذا كنت تعرف بتواضع هادىء ، كيف تحتمل القريحة
التي منحتك الالهة ، فتعلم ايضا كيف تتحمل هذه
الاغصان ، التي هي اجمل هدية نستطيع ان نقدمها
اليك . ان من توج رأسه مرة عن جدارة ، ستكون
له هذه الاغصان مثل دغدغة خفيفة على الجبين .

تاسو : دعيني اذن احجب خجلي عن عينيك . دعيني اخبيء
سعادتي في أعمق عمائق الخمائل ، التي كنت فيها
قديما اخبيء آلامي . هنالك اريد التجوال وحيدا ،
وهنالك لن تذكرني أية نظرة بسعادتي التي لاأستحقها .
ولو تصادف أن عكس ينبوع صاف في مرآته المصقولة
صورة انسان يزين جبينه اكليل رائع وهو يفكر ساكنا
بين الاشجار والصخور ، هنالك سيبدو لى ان أشاهد
على هذا السطح السحرى صورة الوسيوم(١٤) Elysium .
وفي نفسى سأفكر واتساءل : ماعسى ان يكون هذا المتوحد ؟
وماذا عسى ان يكون فتى العصور الماضية هذا ؟ وقد
توج تتويجا رائعا ؟ من يخبرني باسمه ؟ وبفضله ؟سأنتظر
طويلا ثم أقول لنفسى : لوجاء آخر ثم آخر ، لينضما
اليه في أحاديث ودية ! آه ! لو استطعت رؤية الابطال
شعراء الزمن القديم ، متجمعين حول هذا الينبوع ؟

آه! لو استطعت ان اراهم هاهنا دائما لا يفترقون، كما اجتمع شملهم قويا ابان الحياة! وكما يربط المغناطيس — بفضل قوته — بين الحديد والحديد، كذلك يربط نفس الطموح بين البطل والشاعر. لقد نسي هوميروس ذاته، وحياته كلها كرست لتأمل محاربين اثنين، وفي الوسيوم يبحث الاسكندر، متلهفا، عن اخيلوس وهوميروس. اوه! لو كنت استطيع ان اكون هناك لاشاهد أعظم النفوس وقد انتظم شملهم!

ليونورا : استيقظ! استيقظ! لاتدعنا نشعر بانك لاتدرك الحاضر.

تاسو : ان الحاضر هو الذى يسمو بي فوق الارض، أبدو غائبا، لكن هذا وهم: فما أنا الا مسحور.

الاميرة : انا سعيدة بأن أراك وانت تتحادث مع الارواح تتكلم لغة انسانية جدا، ويحلو لى الاستماع اليك.

(خادم يقترب من الامير ويهمس اليه ببضع كلمات)

الفونسو : لقد وصل! وصل في الوقت المناسب. انطونيو! احضره الى هنا لكن هاهو ذا قادم!

المنظر الرابع

السابقون، انطونيو

الفونسو : مرحبا أيا من أتيت بشخصك وبنبأ طيب معا.

الاميرة : تحياتنا لك!

انطونيو : لا أكاد أجرؤ على القول كيف أشعر في حضرتكم بحياة جديدة تسرى في نفسي. امام عيونكم أستعيد

كل ما اسفت على غيابه لوقت طويل . يبدو أنكـــم راضون عما قمت به وما أنجزته انجازاً حسناً ، وهأنذا أكافأ على كل همومي ، وعلى الأيـــام الكثيرة التى أمضيت بعضها في لهفة الانتظار ، وبعضها الآخـر ضاع عن عمد . ان لنا الآن ما نريد ، ونزاعاتنـــا سويت .

ليونورا : وأنا أيضاً أحييك ، وان كان يقتدح غضبي أن تكون عودتك في نفس اللحظة التى لا بد لي فيها من الرحيل .

انطونيو : حتى لا تكون سعادتي تامة ، ها أنت تسلبينى منـــذ البداية شطراً جميلاً منها .

تاســو : ولك تحيتى أيضاً ! وأرجو بالنسبة لي أيضاً أن يكون حضور الرجل المحنك مصدر بهجة لي .

انطونيو : ستجدني صادقاً لو خرجت من عالمك وطاب لك النظر في عالمنا .

الفونسو : على الرغم من أنك في رسائلك أخبرتنى بمـــا فعلت وما حدث لك ، فلا يزال عندي كثير من الأسئلة عن الوسائل التى تذرعت بها للوصول بالمفاوضات إلى نتيجة حسنة ، في هذا الميدان العجيب لا بد من احكام الخطو بدقة ، حتى يؤدى إلى الهدف النهائى المقصود . ان من لا هم لــه ، في روما ، إلا مصالح سيـــده ، يكون في موقف عسير ، لأن روما تريغ إلى أن تأخذ كل شيء دون أن تعطى شيئاً ، وإذا ذهب المرء إلى هناك للحصول على شيء ، فإنه لا يحصل على شيء ، إلا إذا قـــدم

هو شيئاً ، وعلى المرء أن يعد نفسه سعيداً إذا لم يعد صفر اليدين .

انطونيو : نجاحي في تنفيذ مشيئتك أيها الأمير ، لا يرجع إلى مسعاي ولا إلى مهارتي . فمن هو الرجل الماهر الذي لا يجد استاذه في الفاتيكان ؟ لقد تجمعت عدة ظروف استفدت منها لصالحنا . ان جريجوريو(١٥) يقدرك . ويبعث إليك بتحياته وبركته . ان هذا الشيخ العجوز وهو من أجدر من حملوا عبء التاج على رؤوسهم ، لا يزال يذكر بسرور الوقت الذي كان يضمك فيه بين ذراعيه . والرجل الذي يعرف كيف يميز بين الرجال ، يعرفك ويرفع من ذكر مناقبك ! لقد فعل الكثير من أجلك .

الفونسو : يسرني حسن رأيه فيّ ، بالقدر الذي هو به صادق مخلص. لكنك تعرف أن الفاتيكان ينظر من عليائه إلى الامبراطوريات على أنها صغيرة فما بالك بنظرته إلى الأمراء والناس ؟ ! انبئني صراحة أى شيء كان أقوى على إنجاح مسعاك ؟

انطونيو : حسن ! ان شئت ، فإن أشد ما ساعدني كان سمو نظر البابا . انه يرى صغيراً ما هو صغير ، وكبيراً ما هو كبير . وحتى يسيطر على العالم يقدم تنازلات وديه لجيرانه . وشريط الأرض الذي يتركه لك ، هو يقدره بقدره الحقيقي ، شأنه شأن صداقتك نفسها . انه يريد أن يسود السلام في إيطاليا ، ويريد أن يرى في جواره أصدقاء ، ويريد إقرار الهدوء على حدوده ، حتى تتفرغ كل قوى المسيحية ، وهو يقودها بيد قوية ،

للقضاء على الترك ها هنا ، وعلى المراطقة ها هناك .

الأميرة : هل يعرف أحد من هم الناس الذين يمنحهم رضاه أكثر من غيرهم ، ومن هم أهل الثقة والحظوة عنده ؟

انطونيو : الرجل المحنك هو وحده الذي يستولي على سمعه ، ورجل الافعال هو وحده الذي يمنحه ثقته ورضاه لقد خدم الدولة منذ شبابه ، وها هو ذا الآن قد صار الرئيس ، وله تأثيره في البلاطات التى شاهدها من قبل وعرفها وفي أحيان كثيرة وجهها ، حينما كان سفيراً ، وأمام نظره يقوم العالم واضحاً بقدر ما يبصر أين تقوم مصلحة دولته هو . وحين يشاهده المرء وهو يعمل فإنه يمتدحه ، ويسعد حين يشاهد ان ما يكشف عنه الزمان هو ثمرة تأملاته الطويلة السرية ونشاطه الصامت . وليس في الدنيا أجمل من منظر الأمير الذي يحكم بحكمة ، ومنظر المملكة التى يفخر كل فرد فيها بأنه يطيع ، ويعتقد كل واحد أنه لا يخدم إلا مصالحه الخاصة ، لأن كل الأوامر التى تصدر إليه أوامر عادلة .

ليونورا : بودى ان اشاهد ذات يوم — عن قرب — هذا العالم الذى تصفه .

الفونسو : نعم ، ولكن من اجل ان تلعبي فيه دورك ؟ لان ليونورا لن تقنع أبدا بمجرد المشاهدة . وكم سيكون لطيفا ، يا صاحبتي ، لو استطعنا نحن ايضا ان نضع أيدينا الرقيقة في اللعبة الكبيرة — أليس كذلك ؟

ليونورا : (مخاطبة الفونسو) : انت تريد ان تستثيرني ، لكنك لن تفلح في هذا .

الفونسو : هذا حساب قديم ينبغي تسويته ، ولا أزال مدينا لك .

ليونورا : ليكن . انني اليوم مدينة لك ! ارجوك ، لا تشوّش على اسئلتي .

(مخاطبة انطونيو) هل صنع الكثير من أجل اقربائه ؟

انطونيو : ليس اكثر ولا اقل مما ينبغي . ان القوى الذى لا يعرف كيف يهتم بمصالح اهله ، يلومه الشعب نفسه. جريجوريو يعرف كيف يفيد اهله باعتدال ودون ضجيج ، اذا كانوا يخدمون الدولة خدمة حسنة ، وهكذا يوفق بين واجبين يجمعهما نسب قريب .

تاســو : هل يرعى العلم ، والفن ايضا ؟ وهل في هذا ينافس كبار الحكام في الازمان المــاضية ؟

انطونيو : انه يكرم العلم ، من حيث هو مفيد ويعلم في سياســة الدولة . . ومعرفة الشعوب . وهو يقــدر الفن من حيث يضفي على روما الجمال والروعة . ويجعل من قصورها ومعابدها روائع على هذه الارض . ولا يحتمل الى جواره البطالة ، ولاكتساب تقديره لا بد من العمل . لا بد من الخــدمة .

الفونسو : اتعتقد اننا قادرون على انهاء مسألتنا في وقت قريب . وانهم لن يضعوا في طريقنا العقبات ها هنا وها هناك ؟

انطونيو : لا بد ان اكون في ضلال بعيد ، اذا لم تضع بعض رسائل منك نهاية لمنازعاتنا على نحو حاسم .

الفونسو : في هذه الحالة ، سأعد الايام الحاضرة من حياتي ايام سعادة وربح . وسأشهد حدودى وهي تتسع ، وفي مأمن في المستقبل . ودون ضربة سيف ، ستكون قد حققت لي كل هذه المنافع ، وتستحق اكليلا مدنيا عن جدارة . ولا بد ان تقوم سيداتنا ، في صباح مشرق ، بوضعه على جبينك ، وقد ضفر من أوراق السنديان الطرية الناضرة . وتاسو هو الاخر قد أغناني : لقد فتح لنا اورشليم ، وهكذا اخجل المسيحية الحديثة ، بحماسة مبتهجة وبجهد شاق بلغ الغاية التي كانت بعيدة جدا وكانت تبدو انها لا يمكن بلوغها . ومن أجل هذا المجهود العظيم تشاهده امامك وعليه الاكليل .

انطونيو : لقد حللت لي لغزا . فعند وصولي شاهدت — مدهوشاً — رأسين متوجين .

تاسو : اذا كانت عيناك تشاهدان سعادتي ، فبودى ان تستطيعا ايضا مشاهدة خجلي .

انطونيو : منذ زمان طويل وانا أعلم ان الفونسو يغدق جوائزه ، وقد حدث لك ما سبق ان حدث لكل واحد من رجاله .

الاميرة : حين ترى اى عمل انجز ، هنالك فقط ستفهم اننا عادلون معتدلون . ولسنا ها هنا الا الشهود الأول الصامتون على المدائح التي لن يبخل بها عليه العالم ، والتي ستضاعفها الاجيال المقبلة عشرات المرات .

انطونيو : بكم صار منذ الان واثقا من شهرته ومجده . فمن ذا الذى يجرؤ على ان يشكك في قدر من تمدحون ؟ لكن اخبريني ، من وضع هذا الاكليل على جبين اريوستو ؟

ليونورا : هذه اليــد .

انطونيو : وقد احسنت صنعا ، ما في ذلك ريب . هذا الاكليل يزينه خيرا ممــا يستطيع الغار ان يزينه . وكما تســتر الطبيعة الكنوز السرية ، التي ينطوى عليه صدرها ، بثوب مُفَوّف . كذلك هو يستر كل ما يمكن ان يجعل الانسان جديرا بالاحترام والحب — يستره بالحجب اللامعة التي للخيال . ان الرضا ، والتجربة ، والعقل ، وقوة الروح ، والذوق والاحساس الخالص بالحــق والخير — كل هذه الامور تتجلى في قصائده الحــافلة بحياة مثالية ومع ذلك عينية ، ويبدو كما لو كانت تستريح فيها وكأنها تستريح تحت اشجار ذات ازهار ، ويغطيها الثلج من التويجات حتى الجذع الخفيف ، وتتوجها الورود ، بين دورات ذات هوى ، والعاب طيــارة ساحرة يقوم بها آلهة حُبٍّ صغيرة . وينبوع الفيض يخــرّ الى جوارها ، ويمكننا ان نلمح الاسماك العجيبة ذوات الالوان العديدة . والجِواء حافلة بالطيور النادرة ، واسراب من حيوانات مجهولة تملأ المروج والغابات ، والفراهة بالمرصاد نصف مختفية تحت الاوراق الخضراء ، وحكمة ذُرْوة سحابة ذهبيةٍ تُطْلق بين الحين والحين جُملاً صافية ، بينما على العود ذى النفحات المنسجمة تبدو اصابع الجنون انها تشرد في انطلاق عارم ، دون ان يفقد الوزن والايقاع شيئا من جمالهما . والشاعر الذى يجرؤ على الاقتراب من مثل هذه العبقرية ، يستحق الاكليل بفضل هذه الجرأة وحدها . واغفروا لي اذا كنت

أنا اشعر بانني متهم ، واستطيع ان انسى — كما لو كنت فريسة للنشوة — الزمان والمكان الذى انا فيه ؛ واذا كنت عاجزا عن وزن كلماتي . لان كل هؤلاء الشعراء ، وكل هذه الاكاليل ، وثياب العيد التي تلبسها سيدتانا الجميلتان ، تلك الثياب غير المعتادة ، كل هذا يجعلني اخرج عن طورى وينقلني الى عالم غريب .

الاميرة : من يدرى ! لعل حسن تقديرنا لموهبة ربما يجعلنا نسيء تقدير موهبة اخرى . انك ستكشف لنا ، ذات يوم ، في قصائد تاسو ما شعرنا به وتقدر انت وحدك على فهمه.

الفونسو : هيا ، تعال معي يا انطونيو ! لا يزال لدىّ الكثير من الاسئلة لتوجهها اليك ، وانا متلهف لمعرفة الجواب عنها. وبعد ذلك ستكون للسيدتين حتى مغيب الشمس . تعال ! وداعا .

(انطونيو يتبع الامير ، تاسو يتبع السيدتين)

الفصـــل الثـــاني

قـــاعـــــة

المنظر الاول

الامـــيرة ، تاســـو

تاســو : خطواتي المتعثرة تتبعك ، أيتها الاميرة ، وافكار بغير وزن ولا نظام تضطرب في نفسي . ويبدو لي ان الخلوة تدعوني اليها ، وتهمس في سمعي بصوت جذاب : « تعال ، سأحل الشكوك الجديدة التي ثارت في قلبك » . لكن حين انظر اليك ، وحين تسمع اذني المتنبهة كلمة من شفتيك ، فان نورا جديدا ينتشر حوالي ، وتنحل كل قيودى . نعم ، لا اريد ان اخفي عليك ان الرجل الذى جاءنا بغتة قد ايقظني بعنف من حلم جميل ، وجوهره وكلماته مساني على نحوٍ غريب الى حد أني احسست الان اكثر مني في أى وقت مضى بان نفسين تسكنان في ذاتي ، وان معركة مشوشة تقوم بينهما من جـــديد .

الامـــيرة : من غير الممكن لصديق قديم ظل بعيدا مدة طويلة ويحيا حياة غريبة يعود في اللحظة التي يرانا فيها الى ما كان عليه في المـــاضي . لكنه في اعماقه لم يتغير . بعد بضعة أيام نقضيها معا سيعود قلبانا الى الانسجام والوفاق ، والانسجام الجميل الذى كان في المـــاضي سيولد من جديد مرة اخرى . وحين يزداد علما بمـــا فعلته اثنـــاء

غيبته ، فمن المؤكد انه سيضعك في مصاف الشاعر الذى وصفه بانه عملاق اذا قورن بك .

تاسـو : آه يا أميرتي ! ان مدحه لاريوستو ابهجني اكثر مما جرحني . وانه لعزاء لي ان اسمع تمجيدا للرجل الذى نعده النموذج الاعلى . ونستطيع ان نقول في صمت القلب : « اذا بلغت انت حظا من فضله ، فانت واثق انه سيكون لك حظ من مجده » . كلا ! ان ما أثر في أعمق أعماق قلبي ، ولا يزال حتى الآن يملأ نفسي كلها ، هو أشكال هذا العالم الذى يدور — وقد سرت فيه حياة هائلة لا تحفل بالسكون — بايقاع دقيق حول شخصية عظيمة لا نظير لحكمتها ، وينجز المشوار الذى تجاسر نصف الاله على ان يفرضه عليه . ان سمعي تلقى بلهفة ولذة الأقوال الراسخة للرجل المحنك ، لكن واأسفاه كلما اصغيت ، تداعيت في نظر نفسي . وخشيت ان أزول زوال الصدى الذى يتحطم على الصخور ، وان اضيع ضياع الرنين الزائف ، كالعدم .

الامـيرة : ومع ذلك كان يبدو عليك ، في اللحظة السابقة ، انك تدرك جيدا كيف يحيا البطل والشاعر أحدهما من أجل الاخر ، كما يسعى كلاهما الى الاخر ، ولا ينبغي للحسد ان يفصل أبدا بينهما . حقا ان من الرائع ان يبرز المرء بالفعال ، الجديرة بان يتغنى بها الشاعر ، لكن مما لا يقل عن هذا مجدا أن ينقل الى الاجيال المقبلة الفعال العظيمة ، دون ان يقلل من شأنها ، بكل قوتها ، في شعر ليس جديرا بها . واقنع ، في حضن دولة صغيرة تؤمن لك

ملجأ أمينا . بان تتطلع هادئا في المجرى الصاخب للعالم ، وكأنك تتطلع من الشاطىء .

تاســـو : ألم أشاهد ها هنا ، بدهشة ممزوجة بالاعجاب ، كيف يفاجأ الرجل الشجاع مكافأة جليلة ؟ لقد جئت الى هنا صبياً غريرا ، في وقت كانت فيه الاحتفالات تتوالى في فرارا ، ممـــا جعلها تبدو كأنها مركز المجد . اوه ! كم كان منظرا رائعا ! والميدان الفسيح الذى كان مجالا لابراز الشجاعة والمهارة ، كان محاطا بدائرة من المشاهدين الذين لن ترى لهم الشمس نظراء في وقت قريب . هناك في صفوف متراصة احتشدت اجمل النساء ، واعاظم الرجال في عصرنا هذا . وكان النظر يستشرف بدهشـــة الى الحشد النبيل ، وتنطلق الصيحات : « انه وطننا ، انه بلدنا الوحيد ، هذا البلد الضيق الذى تحدق به أمواج البحر ، هو الذى ارسل بهم جميعا الى ها هنا .واجتماعهم يشكل أنبل محكمة قيض لها ان تحكم على الشرف ، والاستحقاق ، والفضيلة . واذا تفرست فيهم الواحد بعد الاخر لن تجد من بينهم من يخجل من جاره ! ثم فتحت الحواجز ، وضربت الخيول بسنابكها ، واشعت البروق من الخوذات والدروع ، وتدافع السياس ، ودوت الابواق الرنانة ، وتطايرت الرماح وهي تقعقع ، ورنت الخوذات والدروع تحت الضربات ، وتطـــاير الغبار في دوامات تحجب مجد الظافر وعار المهزوم . اوه ! دعيني اسدل ستارا على كل هذا المنظر الذى لا تحتمل لألاءه عيناى ، حتى لا استشعر عدم جدارتي تمـــاما في هذه اللحظة الثمينة !

الامـــيرة : اذا كانت هذه الجماعة النبيلة ، واذا كانت هذه الافعال المجيدة قد اشعلت في الماضي حماستك وغيرتك ، فلقد كان في وسعى ايها الصديق الشاب ، ان اقدم اليك في نفس الوقت درساً في الاستسلام الهادئ . ان الاحتفالات التى تمجدها ، والتى مجدتها مئات الالسنة ولسنوات عديدة بعد ذلك ، انا لم أشهدها . لقد كان علىّ ان احتمل الكثير من الالام والخواطر الحزينة وانا في خلوة صامتة — كان يمكن ان تصل اليها لتموت فيها — الاصداء الاخيرة للفرح البعيد . وكان الموت يحلق امام عيوني باجنحته العريضة ، ويحجب عنى منظر عالم كان يتجلى لى جديدا باستمرار . ولم يبتعد شبح الموت الا قليلا قليلا ، حتى استطعت ان ارى — وكأني ارى من خلال حجاب — الحياة المتنوعة الالوان وهى لايزال يعلوها الشحوب . وعدت أشاهد الاشكال الحية وهى تتحرك بهدوء ورقة . وللمرة الاولى — لكن مستندة ايضا الى ذراع احدى وصيفاتي — خرجت من غرفة المرضى . وهنالك جاءت الىّ لوكرتسيا وهى مفعمة بالحياة السعيدة ، جاءت وهى تقتادك من يدك . وكنت أنت انت وجه اجنبي ، مجهول أتي ليجتذب نظراتي في حياتي الجديدة . فتولد عندى أمل عظيم لك ولى ، وحتى الان فيما يخصنى لم يتبدد هذا الامل .

تاســـو : وانا وقد هفا بوعى ضجيج الحشد الصاخب ، وبهرني كل هذا اللألاء وحركت قلبي وجدانات عديدة ، مضيت خلال ابهاء القصر الصامتة ، الى جوار اختك

وانا ساكت ، ودخلت الغرفة حيث تجليت أنت مستندة الى وصيفاتك – يالها من لحظة بالنسبة الى ! أوه ! غفرانك ! وكما يشفى الواقع تحت السلطان السحرى للوهم المثير للنشوة – يشفى في حضرة الالهة التي يُسْلم وجهه إليها ، كذلك انا ايضا ، شفيت من كل حلم عابث ، ومن كل طموح سقيم ، ومن كل غريزة مشوبة ، شفيت لدى اول نظرة من نظراتي نفذت في نظراتك . وبينما كنت قبل ذلك تتشتت شهواتي الساذجة بين آلاف الموضوعات ، اذا بي للمرة الاولى ادخل خجلان في داخل ذاتي ، واتعلم كيف اعرف الخير واشتاق اليه . ومثلُ هذا مثلُ من يبحث دون جدوى في رمل البحر الشاسع عن لؤلؤة ترقد مختبئة في ملاذ المحار المستور .

الامـــيرة : هنالك بدأت ازمان جميلة . ولو لم يسلبنا دوق أوربينو اختى ، لمضت السنوات علينا في حضن سعادة لايكدر صفوها مكدر . لكن واأسفاه ! نحن نأسى أشد الاسى الآن على فقداننا الروح المرحة والقلب الحى المشبوب ، والخيال الثرى لهذه المرأة الجديرة بالحب .

تاســو : اعلم هذا تمام العلم . فمنذ اليوم الذى رحلتْ فيه ، لم يوجد أحد قادرا على ان يعوضك حقا عن السرور الضائع . وهذا الشعور كم مزق قلبي ! وكم مرة كنت أشكو نائحا للخمائل الصامتة تعبيرا عن آلامى من أجلك ! "واحر قلباه" هكذا كنت أنوح ؛ "هل اختها هى وحدها التى تملك السعادة والامتياز أن تكون عزيزة

هكذا لدى اميرتنا العزيزة ؟ ألايوجد قلب آخر جدير بأسرارها ، ولانفس تنسجم مع نفسها غير نفسها ؟ وهل الروح واللطف اختفيا ابدا مع لوكرتسيا ؟ وهل هذه المرأة وحدها ، مهما يكن من سموها ، كانت كل شيء ؟ اغفرى لى ، أيتها الاميرة ! لطالما فكرت في نفسى واشتقت ان اكون لديك شيئا ما — شيئا ضئيلا من غيرتك ، لكنه شيء على كل حال ، واردت ان أكون كذلك لابالقول ، بل بواقع الامر ، وان أبين لك في حياتي كيف ان قلبي قد أخلص لك سرا ، قلبي كله . لكنى لم افلح في هذا ، وكثيرا — واأسفاه — ماحدث لى أن أخطىء ، فأسبب لك الغم بافعالى ، واهين محسوبك وان أعقد العقدة التى كنت تريدين أنت حلها وهكذا في كل مرة أردت ان اقترب منك ، شعرت انى كنت ازداد بعدا .

الامـــيرة : يا تاسو ! اني لم اسيء أبدا فهم ارادتك الطيبة . واعرف كيف تعمل على ايذاء نفسك بنفسك . فبينا اختي تعرف كيف تتعايش مع كل أحد ، ايا من كان ، يشق عليك انت ان تألف صديقا ، حتى لو كنت تعرفه منذ سنوات طويلـــة .

تاســـو : وبخيني ! لكن قولي لي بعد ذلك : أين هو الرجل ، واين هي المرأة اللذان استطيع ان أغامر بالحديث معهما بقلب منفتوح . كما أفعل معك أنت ؟

الامـــيرة : ينبغي عليك ان تنوط ثقتك بأخي .

تاســـو : انه اميرى ! — لا تظني ان حاجة وحشية الى الحـــرية

تملأ قلبي بالكبرياء . ان الانسان لم يخلق ليكون حـــرا ، ولا حظَّ أجملُ عند ذى الخلق النبيل من ان يكون في خدمة امير يوليه احترامه . واني لارى في الفونسو مثل هذا السيد ، واشعر بكل ما تنطوى عليه كلمة « سيد » هذه من معان . وينبغي ان أعرف كيف أسكت حين يتكلم ، وكيف انفذ حين يأمر ، حتى تمـــرد عقلي وقلبي بعنف ضده .

الامـــيرة : لن يحدث هذا أبدا مع أخي . والآن وقد عاد الينـــا انطونيو ، ففي وسعك قطعا ان تجد فيه صديقا جديدا عاقلا .

تاســـو : كنت آمل في هذا ، والآن كدت ايأس تمـــاما . كم في عشرته من فوائد ، وكم لنصيحته في آلاف الاحوال من جدوى ! وفي وسعي ان أقول انه يملك كل ماينقصني ومع ذلك ، لو تجمعت كل الآلهة ليقدموا هداياهم الى مخدعه ، فان آلهات الحسن (١٦) سيبقين غائبات ، ومن تعوزه هدايا هذه الآلهات المحسنات ، يمكنه ان يملك الكثير وان يعطي الكثير ، ولكن لن يستطيع احد الراحة على صـــدره .

الامـــيرة : لكن يمكن على الاقل ان يثق المـــرء به . وهذا كثير . ولا ينبغي لك ان تتطلب في رجل واحد ان يجمع كل الفضائل ، وانطونيو سينجز لك كل ما وعدك به . وفي اليوم الذى سيعلن فيه انه صديقك ، فانه سيسهر بشخصه على مصالحك ، حين تهملها أنت . لا بد لكما ان ترتبطا معا . ويطيب لي ان أقوم بهذه المهمة الجميلة في وقت

قصير . لكن لا تقاوم ، كما هو ديدنك . خـذ مثلا ليونورا : لقد نعمنا بحضورها زمنا طويلا ، وهي رقيقة لطيفة ، طيبة المعشر . ومع ذلك فانك لم تشأ أبدا الاقتراب منها كما كانت ترجو .

تاســو : لقد أطعتك ، والا لهربت منها بدلا من ان اقترب . فمهما يبدو من لطفها ، فلست أدرى لمـاذا لم استطع ان اصارحها تمـاما الا نادرا ، وحتى حين تنوى ان تكون طيبة مع اصدقائها فان المـرء يستشعر النية ، وفي الوقت نفسه يشعر بالضيق .

الامـيرة : اذا سلكنا هذا المسلك ، فلن نجد ابدا مجتمعا يلائمنا ، يا تاســو ! انه درب يسوقنا الى السير في الغابات الموحشة والاودية الساكنة ، وتزداد أنفسنا تعلقا بالعادات السيئة ، والعصر الذهبي الذى لا تجده خارجها ، تصرّ على ان تجعله يحيا في داخلها ، رغم انها لا تفلح في هذا أبدا .

تاســو : أية كلمة تفوهت بها ، اى اميرتي ! أيان هرب اذن هذا العصر الذهبي الذى يشتاق كل قلب عبثا ان يستعيده ؟ هذا العصر الذى انتشر فيه الناس على الارض الحـرة كأنهم قطعان هانئة . ينعمون بثماره . وعلى مـرج الازهار تلقى شجرة عتيقة بظلها الذى يستظل به الراعي والراعية ، وحيث الخمائل الاكثر شبابا ونضرة تتعانق غصونها الرقاق لتؤوى صبوات العشاق ، وحيث الموجة الرخوة الصافية الساجية ، على الرمل الطاهر دائمـا ، تتناوح على جسم الحورية ، وحيث الحية المرتاعة تنساب في العشب دون ايذاء ، وحيث الحيوان الجسور يهرب

فيعاقبه الفتى دون وجل ، وحيث كل طائر في الهــواء
الطلق ، وحيث كل حيوان شارد في الجبال والاودية
كان يقول للانسان : « مباح ما يسر » .

الامــيرة : نعم يا صاحبي ، مضى العصر الذهبي ، لكن القلــوب
النبيلة تبعثه من جديد . هل ينبغي على ان اخبرك برأيي ؟
ان العصر الذهبي الذى اعتاد الشاعر ان يصوره بصورة
أخاذة ، يبدو لى انه لم يوجد في الماضى مثلما هو غــير
موجود في الحاضر ، ولو كان قد وجد أبدا ، فانــه
لم يكن أبدا الا ما يمكن ان يصيره ، ابدا بالنسبة الينا .
ولا تزال ثم قلوب تتشابه فتتلاقي ، وتستمتع معا بجمال
العالم ، لكن في هذه العبارة كلمة واحدة يا صديقى قد
بدلت : « مباح ما يليــق » .

تاســو : اوه ! لو ان محكمة عامة مؤلفة من أناس اخيار نبــلاء
حكمت فيما هو لائق ! بدلا من ان يحكم كل انسان
باللياقة على ما هو نافع له . ألا نشاهد هذا ؟ كل شيء
يليق بالرجل القوى ، بالرجل الماهر ، وهو يستبيــح
لنفسه كل شيء .

الامــيرة : اذا أردت ان تعرف بدقة ما هو الشيء اللائق ، فمــا
عليك الا ان تسأل النساء النبيلات ، لانهن اللواتي يهمهن
ان يكون لائقا كل ما يفعله الناس . ان اللياقة تحيــط
جنسهن اللطيف اليسير الجراح بسور يصون . وهنــاك
حيث تسود اللياقة ، يسدن هن ايضا ، وحيث تســود
الوقاحة فلا مجال لهن . واذا سألت كلا الجنسين ، رأيت
ان الرجل يطمح الى الحرية ، والمرأة تطمح الى الادب
والحشمة .

تاسو : انت اذن تنعتيننا باننا لا يكبح لنا جماح . واننا غلاظ ، عديمو الاحساس ؟

الاميرة : كلا ! لكنكم معشر الرجال تطلبون الاموال البعيدة ، ولا تستطيعون ان تظفروا بها الا باستعمال القوة والعنف. وتريغون في جسارة الى الخلود ، بينما نحن نقصر همّنا في الحصول على مال واحد . طالما كنا في هذه الدنيا ، مال واحد قريب محدود ، وفي المحافظة عليه . اننا لسنا واثقات ابدا في قلب اى رجل مهما تعلق بنا بحماسة ذات يوم . الجمال فان . الجمال الذى يبدو انكم لا تقدرون الا اياه . وما يبقى بعده لن يكون فيه ما يغرى . وما لا يغرى يصير ميتا . ولو وجد رجال قادرون على تقدير قلب امرأة ، قادرون على ادراك ما يمكن ان يضمه صدر المرأة من كنز ثمين : كنز ايمان وحب . ولو استطاع ذكر الساعات الجميلة ان يبقى حيا في نفوسكم ، ولو استطاعت نظرتكم — وهى فيما عدا هذا نفاذة — ان تشق الحجاب الذى يغطينا ، السن أو المرض ، ولو لم يجعلكم الامتلاك . ومن شأنه ان يجلب السكون ، تشتهون اموالا اجنبية . — اذن لكان ذلك يوما جميلا لنا ، ولصار من حقنا ان نحتفل بعصرنا الذهبي .

تاسو : انت تقولين كلمات توقظ بعنف في صدرى هموما شبه نائمة .

الاميرة : ماذا تقصد يا تاسو ؟ تكلم معى بصراحة .

تاسو : كثيرا ما سمعت . ولا أزال اسمع في هذه الايام ،

ولو لم اسمع لكان عليّ أن اظـــن : ان امراء نبـــلاء يطمحون الى طلب يدك ! وما يجب علينا ان نتوقعه نحن نخشاه ونكاد نستيئس منه . ستتركيننا ، وهذا أمـــر طبيعى ، لكن كيف سنحتمل هذا ؛ هذا مالا اعرفه .

الامـــيرة : بالنسبة الى اللحظة الحاضرة ، اطمئن ! بل في وسعى ان اقول : اطمئن الى الابد . اني أود ان احيا هنا وان ابقى ولم اعرف بعد علاقة تجذبنى ، واذا شئت حقا الابقاء عليّ ، فبرهن لى على ذلك بالوفاق ، اجعل حياتـــك سعيدة ، أكن سعيدة بسعادتك .

تاســـو : اوه ! علميني ان أفعل ما استطيع ! ايامى كلها اكرسها لك . وابتغاء تمجيدك ، والشكر لك . يفتح قلبي ثناياه ، وهنالك فقط اشعر بأصفى سعادة يستطيع الانســـان ان يستشعرها . فيك وحـــدك استشعرت السعادة الاوفـــر حظا من الالوهية . ان آلهة الارض تتميز من سائـــــر الفانين . كما تتميز قرارات المصير من قراراتوارادة بنى الانسان ، حتى اوفرهم حكمة . والامواج الـــتى نراها تتصادم بكل قوتها وعنفها ليست بالنسبة اليهـــم غير أمواج خفيفة تجرى مزبدة عند اقـــدامهم دون ان يحفلوا بها ، وهم لا يسمعون العاصفة التى تحيطنــــا بزئيرها وتلقى بنا على الارض ، ولا تكاد شكاوانـــا تبلغ آذانهم . وكما نفعل نحن من اجل الاطفـــــال المساكين المحبوسين في السنتهم ، يتركوننا نملأ الهواء بزفراتنا وصرخاتنا . انت كثيرا ما تحملتنى أيتها الاميرة الالهية ، ومثل الشمس كثـــيرا ما جففت نظرتك الندى في عيني .

الامـــيرة : من الانصاف الا تبخل عليك النساء بعلائم مودتهن ، لان قصيدتك تمجد جنسهن على أنحاء عدة . وســواء صورتهن رقيقات او شجاعات . فانك استطعت دائمـــا ان تصورهن نبيلات محبوبات . واذا كان أرميدة (١٧) Armide يبدو لنا بغيضا . فان مفاتنه وحبه سيستحقان غفرانـــا .

تاســـو : كل ما يرن في قصائدى من نغمات . انما أدين به لامرأة واحدة . واحدة فحسب ! وليست صورة مثالية هلامية الشكل تتراءى أمام عيني ، ومرة تقترب من النفس في اشعاع باهر . ومرة اخرى تحتجب ، لقد شاهدت بعيني نموذج كل فضيلة ، وكل جمال ، والصورةالتي زودتني بقسماتها لن تفنى أبدا : الحب البطولي الذى أوحت به كلورنده الى تنكريد (١٨) والاخلاص الهادىء المستسر عند هرمينيا (١٩) ، وعظمة سوفرونيا (٢٠) ومحنـــة اولنده ــ كل هذه ليست اشباحا . ومن نسج الوهم العابث ، بل هن فاتنات خالدات . لانهن حقيقيات . ومن صاحب الحق الاكبر في ان يبقى حيا خلال القرون وان يستمر في العمل سرا ، ان لم يكن سر الحب النبيل المودع بتواضع في عذوبة القصائد !

الامـــيرة : وهل لي ان اكشف لك عن مزية اخرى يحصل عليها الشعر خلسة من دون ان نعلم ؟ انه يجتذبنا قليلا قليلا ، فنصغي اليه ، ونظن اننا نفهم ، وما نفهمه لا تثريب لنا عليه ، وهكذا ننتهي بأن نصبح سبايا الشعر .

تاســـو : اى سماء تفتحينها لي أيتها الاميرة ! واذا لم يجعلني هذا

البهاء أعمى ، فسأرى في اللحظة التي لم أومّل فيها ، سعادةً أبدية تنحدر في جلال على الاشعة الذهبية .

الامـــيرة : حسبك ، يا تاسو ! ثـَمَّ الكثير من الاشياء التي يجب علينا ان تمسك بها بعنف واندفاع ، لكن ثم أشياء اخـــرى لا نستطيع ان نظفر بها الا بالاعتدال والزهد . ويقال ان هذا يصدق على الفضيلة ، وايضا على الحب وله بهـــا قرابة قريبة . فكر في هذا جيدا .

المنظر الثاني

تاســـو : (وحده) هل يجوز لك ان ترفع عينيك ؟ وهل تجـــرؤ على ان تجيل نظراتك حواليك ؟ انت وحيد ! هـــل سَـمِـعَـتْ هذه الاعمدةُ كلماتِـها ؟ وهل ينبغي عليك ان تخشى هؤلاء الشهود ، الشهود الصامتين على أسمى سعادة ؟ شمس اليوم الجديد في حياتك ها هي ذي تشرق ، ولا يمكن أن يقارن هذا اليوم بأى يوم سبقه . إن الآلهة وقد هبطت من السماء الى الكائن الفاني قد رفعت هذا الاخير الى السماء . أية دائرة جديدة تتكشف أمـــام ناظريه ! اى ملكوت ! واى ملكوت ، ورغبتي المشبوبة لكم تحققت على أجمل نحو ! كنت أحلم بالقرب من السعادة العليا ، وهذا النعيم يفوق أجـــرأ الاحـــلام . فليتخيلن من ولد أعمى ما هو الضوء ، وما هي الالوان بكل ما اوتي من أسباب الخيال ، اذا انكشف « النهار » الجديد ، الذى لم يكن يعرفه ، لأنظاره ، فانه يكتسب حسا جديدا . اني اسلك هذه السبيل الجديدة وانا مفعم

بالحماسة وبالامل الواثق ، نشوان بسرور يجعلني اترنح . انت تمنحينني الكثير ، انت تجودين بمثل ما تجود السماء والارض بغير حساب : بعطاياها الوفيرة بأيد مليئة ، وتطلبين مني في مقابل ذلك ما لا يخوله الا مثل هذا العطاء يجب عليّ ان أزهد ، ويجب عليّ ان اظهر بمظهر الاعتدال ، وبهذا استحق ثقتك . اى شيء اذن فعلته حتى تختارني وتستضيفني انا ؟ وماذا ينبغي ان افعـــل لاكون جديرا بها ؟ لكن كونها استطاعت ان تثق بك ، أليس هذا دليلا على أنك جدير بها ؟ أجل يا أميرتي ! لتكن روحي أبدا طوع كلماتك ونظراتك ! أجل ، اطلبي ما تشائين ، فلك الحق في هذا ، وانا ملك يديك ! ألا فلتبعث بي الى البلاد البعيدة سعيا وراء الفعال والاخطار والمجد ، ولتقدم اليّ في اعماق الخمائل القيثارة الذهبية ، ولتكرسني للراحة ، وللتغني بمناقبها ، فأنا ملك يديها ، انها بتشكيلها أياى على هواها ، تجعل مني عبداً لها ، انه من أجلها حرس قلبي كل كنوزه . آه لو وهبني الله القدرة على التعبير عن نفسي بآلاف الطرق ، لما كفتني للتعبير عن اجلالي لها اجلالاً لا يبلغ مداه التعبير . أود أن تكون لي فرشاة الرسام ، وشفاه الشاعر ، أعذب شفاه تغذت بشهد الربيع . كلا ، بعد الآن لن يغدو تاسو إلى قلب الغابـــات ، ولن يحمل وحدته وضعفه وحزنه وهو يسير في غمرة الناس . لم يَعُدْ بعدُ وحيداً فأنت رفيقته . اوه ! لو استطاعت أمجد المغامرات أن تتجلى هنا أمام عيني ، محاطة بأخطار رهيبة ! فسأهرع إليها ، وسأغامر بحياتي هذه التي أستمدها الآن من بين

يديها ، سأغامر دون أسف . وسأدعـــو أفضل الناس ليكونوا أصدقائي ، كما انجز المستحيل مع جماعة نبيلة ، تحت امرتها ووفقاً لاشارة منها . لمـــاذا لم تستطع تهدئة جزعك ، ولماذا لم يصمت فمك عما استشعرتـــه حتى اليوم الذي تستطيع فيه أن تجثو عند قدميها وأنت جدير بها . لقد كانت تلك خطتك ، وكانت هذه رغبتك العاقلة . لكن ماذا يهم ! ان تلقى مثل هـــــذه الهدية ، بدون سبب ولا داع ، هو أجمل من تخيـــل امكان المطالبة بها . فلتفصح نظراتك عن سرورك ! ان ما ينتظرك لعظيم واســـع . شباب ، غني بالامـــال يدعوك في اغـــراء إلى المناطـــق المجهولـــة للمستقبل الشعشعاني . — انتفخ أيها الصدر ! — وأنت أيها الهواء الذي ينعم به نعيمي ، اعطف مرة أخرى على نبتة حبي . انها تريد ان تتصاعد صوب السماء ، وان تنطلـــــق آلاف الأغصان من جذعها ، وأن تتفتح فيها الأزهار . اوه ! لتحمل ثماراً ! أوه ! لتحمل السرور ! ابتغاء ان تستطيع يد جنون أن تلتقط الزينة الذهبية لاغصانهـــــا البهجة النضرة الثرية .

المنظر الثالث

تاســـــو ، انطونيـــــو

تاســـو : مرحباً بك ، يا من أراه اليوم وكأني أراه للمرة الأولى ! لم يتأد إلي نبأ إنسان بأجمل مما نبئت بك ! مرحباً بك ! أنا اعرفك الآن واعلم قيمتك ، وبدون تردد ، أقدم إليك قلبي ويدي ، وأرجو ألا تولينى صفحة اعراضك.

انطونيو : أنت تقدم لي بسخاء هبات جميلة ، اقدر قيمتها كما ينبغي : لكن اسمح لي أن أتردد قبل أخدها . فأنا لا أدرى هل استطيع أن أقدم إليك في مقابل ذلك ما يماثلها . ولا أود أن أظهر بمظهر المندفع ولا بمظهر الجاحد : واسمح لي أن أكون عاقلاً فطناً بالنسبة إلى كلينا معاً .

تاسو : ومن ذا الذي يلحى الفطنة ؟ ان كل خطوة على طريق الحياة تكشف عن شدة الحاجة إليها . لكن الأفضل من هذا ان يقول لنا القلب متى نستطيع أن نستغني عن الاحتياط المدقق .

انطونيو : ليسأل كل منا نفسه في هذا الصدد ، لأنه إذا ارتكب غلطة ، فإنه هو الذي سيكفر عنها .

تاسو : ليكن ! لقد فعلت واجبي . واحترمت أمر الأميرة التي تود منا أن نكون صديقين ، وقد عرضت نفسي عليك . وما كان من حقي أن أتهرب ، يا انطونيو . أمّا أن أفرض نفسي عليك ، فهذا أمرٌ بعيد عن خاطري قطعاً . فليكن كما تريد . ومع مضي الزمن . حين يزداد كل منا معرفة بالآخر فلربما تطلب أنت مني بمزيد من الحماسة الهبة التي ترفضها أنت الآن بكل برود وتزدريها

انطونيو : الاعتدال يدعى في أحيان كثيرة : بروداً ، مِنْ قِبَل أولئك الذين يتخيلون أنهم أشد حماسة من الآخرين ، لأن حماسة مفاجئة تنتابهم عابرة .

تاسو : انت تستهجن ما استهجن واتجنب . وأنا أيضاً ، رغم شبابي ، اعرف كيف أفضل البقاء على الشدة .

انطونيو : هذا عين العقل ! وابق مخلصاً لهذا الرأي .

تاســـو : لك الحق في أن تنصحني وان تحذرني ، لأن التجربة تصحب خطواتك وكأنها صديقتك التى تعرف قيمتها منذ زمان طويل . لكن صدقني انه بالنسبة إلى القلب المنطوي على نفسه تكون الأيام والساعات غنية بالاراء الناضجة ، وهو يتمرس سراً بكل فضيلة يزعم حَزْمُك انه يعلمني اياها وكأنها أمر جديد عليّ .

انطونيو : من الجميل أن يشغل المرء بدراســة نفسه ، بشرط أن يكـــون ذلك مجدياً ونافعـــاً . لأن الإنســـان ، لا يقدر أن يعرف دخيلة نفسه من مجرد الانطواء عليها لأنه وهو لم يعد له فيه مقياس غير ما يجده في نفسه . فإنه أحياناً يقدر نفسه أقل من قدرها ، وغالباً — مـــع الأسف — ما يقدرها فوق قدرها . ان الإنسان لا يعرف ذاته إلا عن طريق الآخرين ، والحياة هي التى تعلّم المرء كيف يحكم على نفسه .

تاســـو : اسمع كلامك بالتقدير والتحبيذ .

انطونيو : ومع ذلك فأنت ربما تدرك من هذا الكلام أمراً يختلف تماماً عما أقصده .

تاســـو : كلا ! إننا بهذه الطريقة لن نقترب عن بعضنا بعضاً ، فليس من الحكمة ولا الانصاف ان تسيء تقدير إنسان على هذا النحو ، ايا من كان هـــذا الإنسان . أنا أعلم أنك تريد الخير وانك تحققه بـــالفعل ، ويبدو انك لا تحفل بمصيرك أنت ، وتفكيرك يتوجه إلى الآخرين ، وإليهم تمد يد المساعدة ، وعلى أمواج الحياة المائجـــة

يظل قلبك ثابتاً لا يتزعزع . نعم ، هكذا أراك . ومن عساي أكون ، لو لم أغد إليك ؟ ولم أبذل غاية الوسع في المشاركة في الكنز الخفى الذي تخبئه في ذاتك ؟ وأنا أعلم أنك لن تأسف لوأنك فتحت قلبك لي . وأنـــا أعلم أنك ستكون صديقي في اليوم الذي فيه ستعرفني حق المعرفة : ومنذ وقت طويل وأنا في أمس الحاجـــة إلى صديق مثلك . وأنا لا أخجل من عدم تجربتى ، ولا من شبابي . وسحابة المستقبل الذهبية تحيط هادئــة برأسي . ايه يا صديقي النبيل ! تقبلنى على صدرك ، وعلم الفتى المشبوب الحماسة ، غـــير المحنك كيف يستعمل الحياة باعتدال .

انطونيو : أنت تريد أن تحصل في لحظة على ما لا يجود به الزمان إلا بتؤدة وأناة .

تاســو : في لحظة يمنح الحب ما لا يمنحه المجهود في وقت طويل . وأنا لا أتضرع إليك ، بل من حقى أن أطالب بذلك . إنى أدعوك باسم الفضيلة التى تعنى بربط الناس الذين تقدرهم ، وهل لي أن أذكر لك إسماً آخر ؟ الأميرة ترجو هذا ، وتريده — وليونورا تريد أيضاً أن تقتادني إليك ، وتقتادك إليّ . اوه ! أرجوك ، فلنحقق مشيئتها ! فلنظهر متحدين أمام الآلهة ، ولتقدم إليها خدماتنـــــا وروحنا كلها ، ولنوحد جهودنا إبتغاء أن نفعل لهـــا كل ما تستحق . مرة أخرى ! — هذه يدي ! خذها ! لا تتردد طويلاً ، ولا تمتنع طويلاً ، يا صديقي النبيل ، امنحن أجمل نعمة يمكن أن تنعم بها القلوب النبيلة ،

وهي أن تبذل نفسها بكل ثقة ودون تحفظ لرجل أفضل منك .

انطونيو : انت تمضي بأشرعة ملآى ! يبدو انك متعود علـــى الانتصار ، وعلى أن تجد أمامك الطرق راحبة والأبواب مفتوحة . اني أتمنى لك – عن طيب خاطر – كل قيمة وكل سعادة ، بيد أني أرى بكل جلاء أن كلينا لا يزال بعيداً جداً عن الآخر .

تاســو : فيما يتعلق بالسنوات والقيمة المجربة – هذا ممكن ، لكن فيما يتعلق بالحماسة السعيدة والارادة الخيرة ، فــلا يفوقني إنسان .

انطونيو : الارادة لا تكفي للفعل ، والحماسة تقع في الأوهام فيما يتعلق بطول السبل . ان من يصل إلى الهـــدف ، يتلق الاكليل . وفي أحيان كثيرة يحرم منه من هـــو أجدرُ به . لكن ثم أكاليل من السهل الظفر بها – وان مـــن الاكاليل لانواعاً لا تنتهي – ويحصل عليها دون عناء ، أثناء نزهة .

تاســو : قل ان اله الحظ يصنع في هذا أكثر مـــا يصنع سائـــر الآلهه . وأنا أوافقك على رأيك لأن اختياره أعمى .

تاســو : العدالة هي الأخرى معصوبة العينين ، وهي تغلـــق عينيها دون التخيل والتمويه .

انطونيو : من العدل ان يمجد المحظوظ الحظ . وان يعزو اليه في خياله مئات الاعين لتمييز الفضل ، وان يجد اختياره حكيما ، وان يؤكد انصافه الدقيق ، وان يدعوه « مينرفا » ، وان يسميه ماشاء من أسماء ، وان

يرى من الجزاء الوفاق ماليس الا هبة سخية ، ويظن زينة مستحقة عن جدارة ماليس الا زينة منحتها الصدفة.

تاســـو : لم تعد في حاجة الى مزيد من الايضاح . كفى ! اني اقرأ في أعماق قلبك واعرفك مدى الحياة . آه ! لو استطاعت الاميرة ان تعرفك كما اعرفك انا ! لاتبدد سهام عينيك ولسانك ! وعبثا توجهها نحو اكليلى ، اكليلى الذى لن يفنى ، والذى يزين جبينى ، ابدأ بان تطيل قامتك حتى لاتحسدني عليه ، وحينئذ فلربما كان في وسعك ان تنازعنى اياه . انه مقدس عندى ، وهو خيرى الاسمى . ومع ذلك أرني الانسان الذى بلغ الغاية التى اصبو اليها ارني البطل الذى لايعرف اسمه الا لانهم يحكون عنه الحكايات ، أرني الشاعر الذى يمكن ان يقارن بفرجيل ، بهوميروس ، وهذا يعنى ماهو اكثر من هذا : ارني الانسان الذى استحق هذه الجائزة ثلاث مرات ، واخجله هذا الاكليل الجميل ثلاث مرات اكثر منى : حينئذ ستراني جاثيا أمام الالهة التى منحتنى اياه ، ولن انهض واقفا قبل ان تخلعه من جبينى وتنقله الى جبين من ينتصر على .

انطونيو : الى ذلك الحين ستظل جديرا به ، هذا أكيد .

تاســـو : ان أوضع في الميزان ـ هذا أمر لااريد الافلات منه ، لكنى لااستحق الازدراء . والاكليل الذى حكم أميرى باني جدير به ، الاكليل الذى ضفرته يد أميرتي من اجلى ، لايحق لاحد ان ينازعنى اياه ولا ان يستهزئ به

انطونيو : هذه اللهجة المستعلية وهذه الحماسة المندفعة لاتليقان

منك نحوى ، ولا تليقان اكثر بمكان مثل هذا المكان الذى نحن فيه .

تاســـو : ماتسمح به لنفسك هاهنا ، استطيع ان اسمح به لنفسى ايضا . ألا يمكن الحقيقة ان تسمع صوتها هاهنا ؟ هل هذا القصر سجن للروح الحرة ؟ والقلب النبيل الايستطيع ان يعرف هاهنا غير الاضطهاد ؟ يبدو لى ان العظمة مكانها هاهنا اكثر من أى مكان آخر . عظمة النفس ! أليس في وسعها ان تعيش بالقرب من عظماء هذه الدنيا ؟ بلى ، تستطيع ، بل يجب ذلك . والنبل الذى تلقيناه عن آبائنا يكفى وحده ليقربنا من أمير ، فلم لايكون هذا ايضا شأن القلب الذى لم تمنحه الطبيعة عظيما لكل انسان ، كما انها لم تستطع ان تعطى لكل أحد اسلافا مشهورين . صغار النفس وحده هو الذى ينبغى ان يضيق بهذا المكان ، والحسد وحده هو الذى يظهر مسربلا بالعار : وهكذا لايحق لاى عنكبوت ان يلطخ بنسيجه نقاء هذه الجدران المرمرية .

انطونيو : أنت ترينى كم يحق لى ان احتقرك ! هل الولد الغريريد ان ينتزع بالقوة من الرجل الناضج ثقته وصداقته ؟ ياعديم التهذيب (٢١) ، هل تحسب نفسك مؤدبا ؟

تاســـو : اني افضل ماتسميه أنت التهذيب على مالااستطيع أنا أن اسميه لا خسيسا .

انطونيو : انت لاتزال شابا صغيرا بحيث لايمكن التهذيب اللائق ان يعلمك اتباع طرق أفضل من تلك التى تسلكها .

تاســـو : لم أعد شابا صغيرا بحيث اركع أمام الالهة المزيفين ، ولاقدع الكبرياء بالكبرياء ، اشعر بأن قد بلغت أشدّى

انطونيو : حيث يكون الفيصل هو تلاعب الشفاه وتلاعب الاوتار فمن الممكن ان تخرج من المعركة بطلا منصورا .

تاســـو : قد يكون من التهور أن أشيد بقوة عضلاتي ، لانها لم تفعل شيئا حتى الان ، لكنى واثق منها .

انطونيو : انت واثق من المسامحات التى أفسدتك طوال مجرى حظك الوقح .

تاســـو : لقد شببت عن الطوق ، هذا مـا أحس بـه الان . وماكنت أود ان أجرب لعبة السلاح الخطرة معك ، لكنك تهيج نار غضبي باستمرار ، وتجعل دمى يغلى في عروقي ،والرغبة في الانتقام علىألمها تغلى وتزيد في صدرى فان كنت الرجل الذى تفاخر به ، فواجهنى .

انطونيو : انت لاتدرى من أنت كما لاتدرى أين أنت .

تاســـو : لايوجد معبد يلزمنا باحتمال الاهانة . انت الذى تسب وانت الذى تنتهك حرمة هذا المكان ، وليس أنا ، أنا الذى عرضت عليك الرقة والاحترام والمحبة واجمل المجاملات . ان روحك هى التى تدنّس هذه الجنة ، وكلماتك هى التى تلطخ نقاء هذه القاعة ، لامشاعرى المتدفقة ، من قلبي ، قلبي الذى يثور على أقل دنس .

انطونيو : ياله من قلب سام في صدر ضيق !

تاســـو : المكان هاهنا فسيح بما يكفى لافساح المجال للقلب .

انطونيو : والعامة ايضا تروّح عن نفسها بالصياح .

تاســو : ان كنت نبيلا مثلى ، فأرني ذلك .

انطونيو : نعم ، أنا نبيل ، لكنى اعرف أين أنا .

تاســو : اذن تعال معى الى حيث يمكن استخدام السلاح .

انطونيو : كلا ، لن أستجيب لتحدّ غير مناسب لك .

تاســو : الجبن يرحب بمثل هذه العقبة .

انطونيو : الجبان لايهدد الا حيث يكون آمنا .

تاســو : بكل سرور أتخلى عن هذا الأمان .

انطونيو : ورّط نفسك ماشئت ، لكنك لاتستطيع ان تورط هذا المكان .

تاســو : فليغفر لى هذا المكان إذن معاناة الاهانة ! (يستل سيفه) استل سيفك ، او اتبعنى ، اذا لم تشأ ان احتقرك دائما كما اكرهك .

المنظر الرابع

الفونســو ، الســـابقان

الفونسو : في أى عراك اجدكما هكذا على غير حسبان ؟

انطونيو : هأنت ذا تراني ، أيها الامير ، أقف هادئا في وجه من نزت في رأسه سورة الغضب .

تاســو : اني أعبدك كما أعبد الاله ، يامن بنظرة واحدة منه تقدع نفسى محذرا .

الفونسو : احك يالنطونيو ، وقل لى ياتسو ، كيف نفذ النزاع الى داخل بيتى ؟ كيف امسك بكما ، وجركما ، وانتما

الرجلان العاقلان ـ الى هذا الخبال الذى خرج على جادة الاخلاق والقوانين ؟ انا مدهوش .

تاســو : اعتقد تماما انك لاتعرفنا نحن الاثنين على حقيقتنا . هذا الرجل هنا ، المشهور بحكمته واخلاقه ، قد تصرف معي بفظاظة وخبث تصرف رجل غير مهذب ولانبيل اقبلت عليه بكل ثقة ، فردني ، فلم أيأس بل حاولتْ مودتي ان تفرض نفسها عليه ، فلم يزده ذلك الاتعنتاً ومرارة ، ولم يهدأ له بال حتّى أحال انقى قطرة دم في عروقي الى صفراء . عفوا ! لقد وجدتني هاهنا فريسة للغضب الفائر . لكن المسئولية تقع عليه هو ، مسئولية الخطأ الذى ارتكبت . ذلك انه نفخ بكل قواه في اللهيب الذى استولى عليّ وجرح كلينا .

انطونيو : لقد عصفت به حماسة الشاعر السامية . لقد وجهت الكلام الى أنا أولا ، ايها الامير ! وسألتني انا أولا ، فليسْمَحْ لى بالكلام بعد هذا الخطيب المندفع .

تاســو : نعم ، احك كلمة كلمة ! واذا استطعت امام هذا القاضى ان تردد كل مقطع وكل بادرة ، فتجاسر اذن. اذكر الاهانات التّي وجهتها اليك ، حتّى ترتد شهادتك عليك . وفي مقابل ذلك ، لااريد ان انكر أية نسمة نفثها صدرى ، واى نبض نبضت به عروقي .

انطونيو : اذا كان عندك ماتقوله بعد ، فاستمر في الكلام ،والا ، فاسكت ودعني أتكلم هل من رأسى انا ، أيها الامير ، رأسى الحار خرج هذا النزاع ؟ من هو المخطىء ؟ السؤال معقد ، ويمكن ان يبقى الان بدون جواب .

تاسو : كيف ؟ رأيى ان السؤال الاول هو : من منا هو المخطىء ؟

انطونيو : الامر ليس كما يتصوره عقلٌ خارج عن طوره .

الفونسو : انطونيو !

انطونيو : مولاى ، انا احترم تنبهك ، لكى اجعله يسكت . وحين انتهى من كلامى ، فله ان يواصل كلامه ، وانت الذى ستفصل في هذا . سأقتصر على القول باننى لا استطيع ان اتشاجر معه ولا استطيع ان اتهمه ولا ان ادافع عن نفسى ، ولا ان اقدم نفسى الان لتبرير فعله . لانه بما هو هنا الآن ، لم يعد انسانا حرا . انه واقع تحت طائلة القانون ، الذى لن يخفف من صرامته الا كرمك واحسانك . ذلك انه هددني في هذا المكان ، وتحداني للمبارزة وبصعوبة اخفى امامك سيفه المسلول . ولو لم تُقْدم علينا يامولاى ، لرأيتنى انا ايضا امامك ناسيا واجبى مشاركا في خطأه وعاره .

الفونسو : (مخاطبا تاسو) انت لم تحسن صنعا .

تاسو : قلبى ، يامولاى ، يبرىء ساحتى ، وقلبك ايضا من غير شكٍّ . نعم ، صحيح انى هددت ، وتحديت ، وسللت سيفى . لكن بأى خبث وكلمات منتقاة جرحنى لسانه ، وكم سارعت اسنانه المسنونة الى صب السم الدقيق في دمى ، وأحضأ نار الحمى في بدني — هذا كله أمر لا تستطيع ان تتصوره ، ببرود وعدم انفعال جعلنى افقد صبرى شيئا فشيئا . اوه ! انت لا تعرفه ، ولن تعرفه ابدا . لقد قدمت اليه بكل حماسة نفسي اجمل

مودة ــ لكنه القى بهديتي على الارض باحتقار ، ولو لم يثب قلبي أمام هذه الاهانة ، لكان قد فَقَدَ الى الابد حقّه في كرمك وأفْضالك ، وفقد حقه في القيــــام بخدمتك . فان كنت نسيتُ القانون كما نسيتُ المــكان الذى كنت فيه ، فاصفح عنى . لكى لا يوجــد مكان يحق لى فيه ان أكون خسيسا ، أو ان أقبل الاذلال . فان كان هذا القلب . في أى مكان كان ، ينسى الواجب نحوك ، ونحو نفسك ، اذن فعاقبه ، واطرده ، ولا تجعل عينك بعد ذلك تراني .

انطونيو : ما أخف التهم الثقيلة على الشاب ، وما اسهل ما ينفض عن نفسه الاخطاء كما ينفض عن ثوبه الغبار ! وقــد يكون في ذلك ما يثير الدهشة ، لو لم يعرف المرء قــوة الشعر السحرية التي يحلولها ان تتلاعب بالمستحيل . لكنك انت يا أميرى ، وكل من يخدمونك ، هل يعتقدون ان فعلته هذه هينة ــ أكاد أشك في هذا . ان الجلالة تبسط جناح الرعاية على كل من يقترب منها ، كما يقــترب المرء من اله ومن معبده غير المستباح . وعند وصيــد قصرها يضبط الانفعال نفسه ، كما يفعل عند قــدم المذبح . فلا سيف يسل ، ولا كلمة تهديد ، ومن أهين يتخلى عن الانتقام . وخارج اسوارها يتسع المجــال للغضب الثائر والكراهية المنطلقة . وهناك لا يجرؤ الجبن على التهديد ، والشجاع القلب لا يتهرب . وهــذه الاسوار الماثلة قد اقامها اجدادك على الامان ، وشيدوا

لمهابتهم حرما آمنا ، وبحكمة بالغة وضعوا فيها العقبات أمام الاضطراب ، وسنوا لذلك عقوبات صارمة : النفى ، السجن ، الموت كانت عقوبات المذنب ، ولم يكن ثم اعتبار للشخص ، والرحمة لم تقف ذراع العدالة ، والمجرم نفسه شعر بالخوف يأخذ بمُخَنَّقه . وبعد أيام طويلة من السلام المشرق ، نشاهد في مأوى الأدبِ واللياقةِ الغضبَ الوحشىَّ يظهر بعنف . سيدى ! احكم ، وعاقب ! فمن ذا يستطيع ان يسير بين حدود الواجب الضيقة ، اذا لم يَحْمِهِ القانونُ وسلطة الامراء ؟ !

الفونسو : شعورى بنزاهته (٢٢) يجعلني اسمع اكثر مما تقولان وما لايقدر كلاكما ان يقوله . كنتما ستؤديان الواجب على نحو أفضل لو انكما لم ترغماني على اصدار حكم . وفي هذه المسألة الحق والخطأ جاران قريبان . فان كان انطونيو قد اهانك ، فعليه ــ بطريقة أو باخرى ــ ان يدفع لك التعويض الذى ستطلبه . لكنى أود ان تمتثلا لحكمي . والى ان يحين موعده ، فان غلطتك ياتاسو تقضى عليك بالسجن . ومع ذلك فاني أعفو عنك ، واخفف من اجلك صرامة القانون . اتركنا يا تاسو ولا تغادر ابدا غرفتك . ستكون لنفسك حارسا ورفيقا وحيدا .

تاسو : أهذا ، أيها الأمير ، حكم قضائك ؟

انطونيو : ألا ترى فيه رأفة الأب ؟

تاسو : (مخاطباً انطونيو) الآن لا كلام لي معك . (مخاطباً الفونسو) أيها الأمير ! ان حكمك القاسي يجعل منى

دي بويون . وقد حشاها الشاعر بأحداث خيالية وحكايات غرامية اضفي عليها سمات شعرية رفيعة . لكن تحليقاته الشعرية كانت تحبسها وتقلل من جمالها الاعتبارات الدينية والاخلاقية المتشددة التي حرص الشاعر عليها . وفي الملحمة جانبان متقابلان : جانب الطبيعة والغابات والعواطف الغرامية ، وفي مقابلة جانب المعارك ، والخطب وادوار الملائكة فى القتال .

وطبعت هذه الملحمة فى سنة ١٥٨٠ دون علم الشاعر ولا رغبته . وكانت وساوسه الدينيه تسيطر عليه ليعرف هل كل ما في هذه الملحمة يطابق العقائد الدينية بحذافيرها . وسبب له هذا البلبال قلقا بالغا ربما كان من أسباب ما انتهى اليه من جنون . ودفعه هذا القلق الى كتابة الملحمة فى صورة أخرى ، ظهرت فى سنة ١٥٩٣ تحت عنوان : « أورشليم مفتوحة» Gerusalemme Conquistata لكن هذه اقل قيمة من ((**أورشليم محررة**)) .؟

وكان تاسو في تلك الاثناء قد نال حظوة كبيرة لدى الفونسو الثانى ، دوق فرارا ، ولدى أختيه : لوكرتسيا ، وليونورا . وتغنى تاسو بهاتين الاخيرتين فى أشعاره .

وهنا تثور المشكلة الكبرى فى حياة تاسو : هل قامت علاقات غرامية بينه وبين الاميرة ليونورا ؟

اما من الناحية التاريخية المحض فالباحثون يقطعون بعدم قيام مثل هذه العلاقات ، ويؤكدون ان اهتمام ليونورا واختها لوكرتسيا والامير بانتاج الشاعر انما كان وفقا لما جرى عليه العرف فى ذلك الوقت ، من رعاية الشعراء والفنانين والقصائد التي فيها تغنى تاسو بالاميرتين انما ضرب فيها على قالب العرف والتقليد الجارى آنذاك ، دون ان يكون له أى مدلول فى الواقع . لقد جرى العرف بأن يمجد الشعراء من يتولون رعايتهم ، من الامراء او الاميرات او من اليهم ، ولم يكن فى ذلك أدني دليل على قيام علاقات حقيقة اخرى غير التمجيد والمديح .

لكن الاسطورة شاعت بأن ثم علاقة غرامية بين تاسو والاميرة ليونورا دسته ، وزعموا أنه وجه اليها قصائد مشبوبة بغرامه الجارف ، لكنه أخفى موضوع غرامه ، الى درجة ان سيدتين اخريين تحملان نفس الاسم : ليونورا ، كان فى وسعهما ان يزعما انهما المقصودتان ، وهما الكونتيسة ليونورا سانفتالى — وستلعب دورا ظاهرا فى مسرحيتنا هذه — ووصيفة فى القصر .

أنا الرجل الحر ، مسجوناً . ليكن ! أنت تعتقد أن هذا عدل . اني أحترم أمرك ، فهو مقدس عندى ، وآمر قلبي أن يخبىء في أعماقه الصوت الصارخ فيه . وما يحدث لى الآن جديد ، إلى درجة أني لا أكاد أتعرفك ، وأتعرف نفسي وهذا المقام الجميل . اما خصمى فأنا أعرفه جيداً ! اريد أن أطيع ، وأن كنت استطيع ويجب عليّ — طالما كنت هنا — أن أقول أشياء كثيرة . لكن شفتي بكماء . هل ارتكبت جريمة إذن ؟ يبدو هـذا ، لأننى أُعامَل معاملة المجرم . ومهما يقل قلبي فأنا سجين .

الفونسو : أنت يا تاسو تأخذ الأمر بأشد مما آخذه أنا .

تاسو : بقي لدىّ لغز : لغز ، هذا تعبير مبالغ فيه ، وما أنـا بطفل ، أكاد اعتقد أنه ينبغى عليّ أن أفهمه . وفجأة ينبثق ضياء ، ويلوح إليّ ، وفي نفس اللحظة يعـود الظلام . لا سمع عندى إلا للحكم الصادر ضدى ، وأنا أحنى رأسي . وما قلت إلا كثيراً من الكلمات التى لا جدوى فيها . عَوِّدْ نفسك إذن منذ الآن على الطاعـة أيها العاجز . لقد نسيت أين كنت : قصر الآلهة ، بدا لك في مستوى الأرض ، والآن سقطة سريعة تدفـع بك إلى الهاوية . أطـع عن طيب نفس ، إذ يخلـق بالمرء أن يفعل عن طيب نفس ، ما هو مؤلم له . هـاك السيف الذي اعطيته حينما كنت أرافق الكردينال في فرنسا ، لقد حملته دون مجد ، ولكن أيضاً بدون خجل وعار ، حتى ولا اليوم . هذه الهبة التى علقت عليهـا الكثير من الآمال ، هأنذا أتخلى عنها بانفعال عميق .

الفونسو : أنت لا تدرك إذن شعوري نحوك .

تاســـو : نصيبي أن أطيع ، لا أن أفكر ! واأسفاه ! ان المصير يطالبني بأن أضحي بهدية أثمن . إن الإكليل لا يليـــق بسجين . وهأنذا أخلع بنفسي عن رأسي هذه الزينة ، التي بدأت كما لو كانت ستزينه إلى الأبد . لقد منحت السعادة العظمى في وقت مبكر جداً ، وهـــا هي ذي تعاقبني على ما بثته في نفسي من كبرياء فزالت عني . انك تنتزع من ذاتك ما لا يستطيع إنسان آخر أن يأخذه منك ، وما لا يمنحه الله مرتين . ونحن معشر بنـــي الإنسان ، نحن نمتحن على غريب ، نحن لا نستطيع أن نتحمل ذلك ، لولا أن الطبيعة منحتنا الخفة المحسنة . والمحنة تعلمنا أن نلعب ، غير مكترثين مثل المبذرين ، بخيرات لا تصاب لها قيمة ، وبأنفسنا نفتح أيدينا لينحدر منها خير ثمين إلى غير عودة . (يقبل الاكليل) . بهذه القبلة تمزج دمعة تكرسك إلى ما هو فان عابر . وهذه العلامة الرقيقة على ضعفنا مسموح بها . ومن ذا الذي لا يبكي ، حين يرى أن الخيرات الخالدة هي نفسهـــا لا تأمن الموت . إذهب والحق بهذا السيف الذي لم يظفر بك ، مع الأسف ! ولف نفسك حواليه ، واسكـــن كما لو تسكن على قبر البطل ، على قبر سعادتي وآما لي وهأنذا أضعهما معاً بحرية عند قدميك ، ففيم يفيـــد السلاح حين يزمجز غضبك ، وفيم تفيد الزينة لمـــن لا تقدره ؟ إني أخرج من هنا سجيناً وانتظر حكمك .

(باشارة من الامير يلم خادمه السيف والأكليل ويحملها)

المنظر الخامس

الفونســـو ، انطونيـــــو

انطونيو : إلى أين يذهب الخيال بهذا الولد ؟ وبأية ألوان يصور قيمته ومصيره ؟

الشباب ـ لأنه محدود وغر غير مجرب ـ يظن في نفسه أنه من معدن لا نظير له ونادر ، ويحسب أن كل شيء مسموح به تجاه كل ما ليس بشباب : فليشعر بالعقاب ، فإن عقاب الشاب نعمة تضمن لنا عرفان الرجل الناضج.

الفونسو : لقد حل به العقاب ، وأخشى أن يكون عقاباً بالـــغ القسوة .

انطونيو : إذا أردت أن تعـــامله على نحو أكثر رأفة ، أيهـــا الأمير ، فأعد إليه حريته وليكن السلاح هو الفيصل في نزاعنـــا .

الفونسو : لو طالب الرأى بهذا ، فلن اعترض عليه . لكن قل لى كيف اهجت غضبه ؟

انطونيو : يصعب عليّ ان اصف كيف حدث ماحدث . ربما جرحته بوصفه رجلا ، لكن كرجل نبيل فاني لم اهنه . ولم تنبس شفتاه حتى في أشد هياج غضبه بكلمة تخدش الادب .

الفونسو : هكذا ظهر لى شجاركما وماظننته في بادىء الامر ، وماتقوله الآن يؤيده . وحين يتعارك رجلان ، فالناس يعدون اعقلهما هو اكثرهما ذنبا . ما كان يحق لك ان تهتاج ضده ، وانما كان الاليق بدورك ان ترشده

وتوجهه . لكن لايزال في الوقت متسع : فالمسألة التى
نحن بصددها ليست من تلك التى ترغمك على امتشاق
السلاح . وطالما استطعت ان ابقى في سلام مع جيراني ،
فاني اريد ان انعم بالسلام في بيتى ايضا . أعدّ الهدوء
وفي استطاعتك ان تصنع ذلك بسهولة . من الممكن ان
تبدأ ليونورا سانفتالى بالسعى لتهدئته بكلمات رقيقة ،
وبعد ذلك تذهب انت اليه ، وتطلق سراحه باسمى .
ثم تكتسب ثقته بكلمات نبيلة مخلصة . افعل هذا متى
استطعت . ستتحدث اليه كصديق وكوالد . وقبل ان
نرحل من هنا ، اريد ان الصلح قد انعقد بينكما .
ولاشيء يستحيل عليك اذا اردته . واذا اقتضى الامر
فسيبقى ساعة أخرى ، ونترك للنساء مهمة اتمام مابدأته
وحين نعود ، سيكن قد ازلن كل أثر للانطباعات
العابرة لتلك الساعة . يخيل للمرء أنك ياانطونيو تخشى
ان تصدأ ! لم نكَدْ تفرغ من مشكلته ، حتى خلقت
لدى عودتك مشكلة اخرى . آمل ان تنال نفس النجاح

انطونيو : انا خجلان ، وارى في كلماتك كما لو كانت مرآة
صافية كل الصفاء ، أرى ماذا كانت غلطتى . ومن
السهل على المرء ان يطيع سيدا نبيلا يعرف كيف يقنع
كما يعرف كيف يأمر .

الفصل الثالث

المنظر الاول

الامـــيرة : (وحدها) أين اذن ليونورا ؟ كل لحظة تمر تزيد من ألم القلق الذى يمزق أعماق القلب . لاأكاد أعرف ماذا حدث ، ولا أكاد أعرف من الجاني . آه لو جاءت ! لاأود أن أتكلم مع أخي ، ومع أنطونيو قبل أن أكون أهدأ نفسا ، وقبل أن أعرف كل ماحدث وماعسى أن يحدث .

المنظر الثاني

الاميرة ، ليونورا

الامـــيرة : ماوراءك من أنباء ياليونورا ؟ قولى لى الى أين صار أصدقاؤك ؟ ماذا حدث ؟

ليونورا : لم أعرف شيئا أكثر مما كنا نعرف . لقد اصطدم كلاهما بالآخر اصطداما عميقا ، واستل تاسو سيفه ، وفصل بينهما أخوك . لكن يلوح ان تاسو هو الذى أثار النزاع لان أنطونيو يتجول بحرية ويتحادث مع أميره ، أما تاسّو فعلى العكس من ذلك : ألقي به في غرفته ولايشاهد احدا .

الامـــيرة : من المؤكد أن أنطونيو هو الذى أهاجه ، لقد أهان روحه السامية ، بما أبدى من برود وعدم اكتراث .

ليونورا : وأنا أعتقد هذا أيضا ، لانه حين أقبل عليه كانت سحابة تظلل جبينه .

الامـــيرة : أواه ! لماذا قدر علينا أن ننسى الى هذا الحد أن نتبع صوت القلب المستسر الصافي ؟ ! ان فينا يتحدث الاله همساً ، همساً ولكن بوضوح ، ويقول لنا ما ينبغي أن نفعل ومـــا ينبغي أن نتجنب . في هذا الصباح بـــدا لي انطونيو أكثر تصلباً وانغلاقاً مما كان من قبلُ . وقلبي أنبأني بالخطر حين شاهدت تاسو قادماً . ما عليك إلاّ أن تنظري إلى مظهرهما : الوجه ، البزة ، النظـــــرة ، المشية ! كل شيء فيهما يتعارض ويتنافر ، ولن تستطيع الصداقة أن تجمع بينهما أبداً . بيد أن الأمل وهو الذي يخلق الأوهام ، قال لي بلهجة مقنعة : كلاهما عاقل ، نبيل ، مثقف ، وكلاهما صديق لك ، وهل هناك رابطة أمتن من الرابطة الجامعة بين النفوس الفاضلة ؟ دفعت الشاب تاسو ، فقدّم نفسه كلها ، لقد أسلم قياده بين يديّ بلطف وحرارة ! أواه ! لو كنت فقط تحادثت قبل ذلك مع انطونيو ! ترددت ، وكانت المهلة قصيرة جداً . وخفت أن أوصيه بتاسو . منذ الكلمات الأولى المتبادلة بدون حرارة تذكر ، لقد وثقت باللياقـــــة والأدب ، وبالعرف الجارى ، الذي يقوم رفيقاً حتى بين الاعداء ، ولم أتوقع من رجل ذي تجارب ، مثـــل أنطونيو ، أن ينفعل هذا الانفعال الخليق بحمية الشباب . لكن حدث ما حدث . كان الشّر بعيداً عنهما ، لكن ها هو ذا الآن أسْدِ ي إليّ نصيحةً . ما العمل ؟

ليونورا : اسداء النصيحة أمر عسير ، حسبما تقولين ، وانت نفسك تشعرين بهذا . ان المسألة ها هنا ليست من نوع ألوان سوء الفهم بين قوم يفكرون بنفس الطريقة ، مما يمكن بضع كلمات أو — عند الحاجة — السلاح أن يبدده دون صعوبة وعلى نحو سعيد . هنا يتواجه رجلان شعرت منذ زمان بعيد أنهما خصمان ، لأن الطبيعة لم تجعل منهما رجلاً واحداً . لو كانا عاقلين وفهما مصلحتهما ، لكانا صديقين متحدين في رجل واحد ، وسلكا سبيل الحياة قويين سعيدين مسرورين وكان ذلك أملي ، فترةً من الوقت ، لكني أرى الآن أن هذا الأمل وهم . وعلينا ، مهما كلفنا هذا من ثمن ، أن نهدّىء من شجار هذا اليوم ، لكن هذا لن يكون ضماناً للمستقبل ، بل ولا للغد . وعندي أن الحل الأمثل هو أن يبتعد تاسو فترة من الوقت ، وفي وسعه أن يذهب مثلاً إلى روما أو فيرنتسه ، وسألحق به هناك في غضون بضعة أسابيع وأستطيع أن أوثر فيه بوصفي صديقه . وفي تلك الأثناء تستطيعين أنت ، من ناحيتك أن تقرّبي أنطونيو من جديد ، بعد أن أصبح غريباً عنك وعن أصدقائك : وهكذا فإن ما يبدو لنا الآن مستحيلاً ، يمكن الزمان باحسان أن يسمح به ، والزمان يسمح بالكثير .

الأميرة : أنت ، يا صديقتي ، تريدين أن تستمتعي باللذة ، وعليّ أنا أن أتخلى : أهذا عدل ؟

ليونورا : لن نتخلى إلاّ عما لا تستطيعين أن تستمتعي به الآن .

الأمـــيرة : هل ينبغي لي بكل هذا الهدوء أن أنفي صديقاً ؟

ليونورا : بهذه الطريقة تحافظين على من يبدو في الظاهـــر فقط أنك تنفينه .

الأمـــيرة : أخي لن يدعه يرحل عن طيب خاطر .

ليونورا : لو أدرك الموقف على غرار ادراكنا له ، فلا شك أنه سيوافق .

الأمـــيرة : من المؤلم حقاً أن يدين المرء نفسه وهو يدين صديقاً .

ليونورا : لكن على هذا النحو فقط ستنقذين صورة صديـــــق تحملينها في قلبك .

الأمـــيرة : كلا ، لا أقوى على الموافقة على إبعاده .

ليونورا : عليك إذن أن توطنى نفسك لوقوع مصيبة أكبر .

الامـــيرة : أنت تعذّبينى ، ولا تعرفين هل تسدين الىّ خدمـــة .

ليونورا : سنرى عما قريب من منا هو المخطىء .

الامـــيرة : ان كان هذا مايجب ، فلا تطلبى منى بعدُ شيئا .

ليونورا : بالعزم على أمر يسيطر المرء على آلامه .

الامـــيرة : لا أستطيع أن أعزم على أمر ، لكن فليكن ، ان لم يكن ابتعاده لمـــدة طويلة — ولنهتمنّ به ياليونورا ، حتى لا يعاني في الايام المقبلة من حرمانٍ ممكن ، ولنعمل على ان يوافـــق الدوق على توفير معاشه ، حتى في أرض أجنبية ، تحدثي في هذا مع أنطونيو ، فله تأثير كبـــير على أخي ، وارجو ألا يؤاخذنا على هذا الشجار ،ولا أن يؤاخذ صديقنـــا .

ليونورا : كلمة منك ، أيتها الاميرة ، سيكون لها تأثير أكبر .

الامـــيرة : أنت تعلمين ياصديقتى أننى لا أستطيع كما تستطيع أختى (زوجة الدوق) دوربينو ان أطلب شيئا لنفسى أولا صدقائي . وأحب أن أعيش في هدوء ، يوما بيـــوم ، وأقبل مع عرفان بالجميل ما يستطيع أخى ومايريد ان يعطينى اياه . في الماضى نالنى من ذلك كثير من التوبيخ ، والآن وطنت عزمى . وكثيرا ما عاتبتنى على ذلكاحدى الصديقات وقالت لى : أنت لاتؤثرين نفسك بشيء ، هذا حسن ، لكنك أصبحـــتِ في ذلك بحيث صرتِ عاجزة عن رؤية حاجات أصدقائك أنفسهم . » واني أدع الامور تجرى في مجراها ، وأنا بهذا أستحق اللوم ، هذا أمر أسلّم به . لكنى بهذا سأكون اكثر رضا لـــو استطعت أن اقدم الى صديقنا عونا حقيقيا . ان ميراث أمي في حوزتي ، وسأكون سعيدة جدا أن أسهم في أن أرد عن صديقنا شبح الحاجة .

ليونورا : وأنا يا أميرتي في وضع يمكننى أنا أيضا من الكشف عن صداقتى . ان تاسّو لا يحسن تدبير المـــال ، لو أعوزه شيء ، فسأقدر على أن أدبّر الوسائل لاسعافه فيالسرّ .

الامـــيرة : اذن خذيه ، واذا كان لابد لى من الاستغناء عنه ، فاني أتنازل لك عنه عن طيب خاطر أكثر من غيرك . نعم ، هكذا ، فيما يبدو لى ، سيكون الامر أفضل . هـــل ينبغى لى ان أشيد بهذا الالم الجديد بوصفه حسنا ومفيدا للسلامة ؟ لقد كان ذلك مقدّرا عليّ ، منذ نعومـــة أظفارى ، وقـــد تعودت عليه . ان فقدان ألذ سعادة

لا يشعر به المرء كثيرا متى ما كان امتلاكها موضع شك .

ليونورا : آمل ان أراك سعيدة ذات يوم ، فأنت تستحقين ذلك .

الاميرة : سعيدة ! أي ليونورا ! ومن هو السعيد ؟ - أخي ، بالتأكيد ، يمكن أن أقول عنه انه سعيد ، لان قلبه الكبير يتحمل مصيره بنفس الشجاعة ، لكنه لم يحصل أبدا على ما يستحقه عن جدارة . وهل أختي (زوجة دوق) دوربينو سعيدة هي الاخرى ؟ هذه المرأة الرائعة الجمال ، الكبيرة القلب ، النبيلة ! انها لم تلد اولادا لزوجها الذي يصغرها في السن ، انه يخدمها ولا يحملها اصر خيبة رجائه ، لكن السرور لا يسكن في بيتهما . فيم أفادت والدتنا (٢٣) كلُّ حكمتها ، ومعارفُها في كل الميادين ، وذكاؤها الكبير ؟ هل جنبها هذا الذكاء الكبير الوقوع في ضلالة أجنبية(٢٣)؟ لقد حرمنا منها ، وماتت ، دون أن تترك لأولادها عزاء كونها قد ماتت بعد أن انصلح أمرها مع ربّها .

ليونورا : أوه ! لا تفتشي عما يعوز هذا أو ذاك . وتأملي بالاحرى ما يبقى لهم ! كم من خيرات بقيت لك ، أيتها الاميرة !

الاميرة : ما بقي لي ؟ الصبر ، ياليونورا ، لقد مارسته منذ شبابي : حينما كان أصدقائي وأخي وأختي ينصرفون فرحين معا الى الاحتفالات والالعاب ، كانت العلة تحبسني في مخدعي ، وفي صحبة الكثير من الالآم تعلمت الزهد منذ وقت مبكر . وشيء واحد فقط هو الذي كان يسرّي عني في خلوتي ، هو الفرحة بالغناء ، كنت

أناجي نفسي ، وأهدهد بالنغمات العذبة آلامي ، ورغباتي وأمانيّ ، وهكذا صار تغنيّ بآلامي عذبا حلوا ، وصار حزني انسجاما . لكن ، واحسرتاه ، سرعان ماسلبت هذه السعادة ، لقد سلبني اياها الطبيب بعد أن سُلبْتُ الكثيرَ من قبل . فقد فرض عليّ صمتا قاسيا . وكان عليّ أن أعيش ، وكان على أن أعاني الآلام ، دون أن أعرف بعدُ حتى هذه السلوى الوحيدة الهيّنة .

ليونورا : والاصدقاء العديدون الذين جاءوا اليك أفواجا ! هاأنت قد شفيت ، وتستطيعين أن تنعمي بالحياة .

الامـــيرة : شفيت ؟ هذا يعني فقط انني لست مريضة ، وانا أعلم ان لى أصدقاء عديدين اخلاصهم يجعلني سعيدة . وكان لى صديق —

ليونورا : انه لايزال صديقك دائما .

الامـــيرة : لكني سأفقده بعد قليل . كانت اللحظة الاولى التي رأيته فيها لحظة حافلة بالمعاني . كنت قد أبللت من كثير من الآلام ، وزال العذاب والمرض منذ قليل ، وفي صمت واستحياء استشرفت بنظراتي الى الحياة ، واستمتعت من جديد بالنور ، وبمعاشرة اخي وأختي ، وكنت أستروح ، بشجاعة متجددة ، البلسم الاصفى للرجاء العذب . وتجاسرت انأرفع عيوني نحو المستقبل ، وتراءت امامي صور جميلة من تلك المناطق البعيدة . هنالك ياليونورا ، قدمت اليّ أختي الشاعر الشابّ ، اقتادته بيدها ، وعليّ ان أعترف بأن نفسي أفعمت به ، ولن تنفصل عنه أبدا .

ليونورا : آه ياأميرتي ، لاتندمي على هذا تعرف ماهو نبيل مكسب لايمكن أبدا سلبه منا .

الامـــيرة : الجميل والجليل يثيران الخوف شأنهما شأن اللهب الذى يسدى اليناخدمات جلّى مادام يشتعل في موقدنا ، وطالما كان يصدر عن الشعلة التى تضئ لنا . كم هو يدمع حينئذ ! ومن ذا الذى يود أو يستطيع أن يستغنى عنه ؟ لكن حين لايراقب ، فانه يلتهم كل مايحيط به ملقياً بنا في هاوية البؤس . دعيني الآن . أنا أهذر ، والافضل أن أخفى ، حتى عنك أنت ، ضعفى وآلامى .

ليونورا : بالشكوى وايلاء الثقة يمكن ان تتبدد احزان النفس على نحو أيسر .

الامـــيرة : اذا كان ايلاء الثقة يشفى ، فعما قليل سأنال الشفاء ، لاني أودعت فيك ثقتى خالصة وبدون تحفظ . آه ياصديقتى ! صحيح انى صادقة العزم : وماعليه الا أن يرحل ! لكنى أستشعر مقدما بالحزن الطويل ، حزن الأيام المتطاولة التى ينبغى علىّ فيها أن أتخلىّ عما كان مصدر سرورى . والشمس لن تزيل من جفوني صورته المثالية في أحلامى ، والأمل في رؤياه لن يملأ بعد بالرغبة السارّة روحى التى هجرها النوم ، وعبثا ستبحث عنه نظرتي الاولى الى حدائقنا في الخمائل الرطبة المخضلة بأنداء الصباح . كم كان حلوا أن أستطيع ارضاء رغبتى في تمضية أماسّى الساجية بصحبته ! وكم كانت في أحاديثنا تزاد الرغبة في أن يزداد كلانا معرفة بالآخر وفهما له

وكم اتحد قلبانا كل يوم في انسجام يزداد كل يوم طهارة ! وأى ظلام ينسدل الآن أمام عينيّ ! ان بهاء الشمس ، والشعور المسرور بالضوء الشامل ، ومنظر العالم المتلألىء بالعديد من الاعاجيب ، كل هذا يختفى في ثنايا الضباب الذى يحدق بي . بالامس كان كل نهار حياة مليئة عندى كان الهم يصمت ، والتوقع لايتكلم ، والنهر يحملنا ، كمسافرين سعيدين ، على أمواجه الخفيفة دون حاجة الى مجاديف ، والآن ، في حضن الحاضر المظلم ، يهاجم الخوف من المستقبل قلبي في السرّ .

ليونورا : سيعيد المستقبل أصدقاءك اليك ، وسيأتي لك بمسرّات جديدة وسعادة جديدة .

الامـــيرة : ما أملكه أحب أن أحتفظ به ، ان التغيير يسلي ، لكنه لا يفيد لم تحملنى حماسة الشباب أبـــدا على أن أضع يدى الطامعة في إجّانة عالم غريب ، ابتغاء أن التقط بالصدفة شيئا أيا كان لقلبى المضطرب بالرغبة في خيرات مجهولة . كان يثير في نفسى الاحترام ولهذا أحببته . وكان عليّ أن أحبّه ، لاني عشت معه حياة لم أعرفها من قبل . في البداية كنت أقول لنفسى : « ابتعدى عنه ! » فتراجعت ، ثم تراجعت ، لكن هربي منه زادني منه قربا ، وكان انجذابي اليه لذيذا ، وابتعادى عنه عقابا قاسيا ! ان سعادة حقيقية وصافية تبتعد عني ، وجنيا شريرا يعطيني آلاما تصدر عن نفس المصدر ، بدلا من الحبور والنعيم .

ليونورا : اذا كانت كلمات صديقة لاتستطيع منحك راحة

السلوان ، فان القوة الخفية للعالم وهو جميل ، وللنفس وهو خير ، ستخفف عنك الضيق وأنت لاتشعرين .

الامـــيرة : حقا ان العالم جميل . وفي فضائه الشاسع يتحرك الكثير من الخيرات هاهنا وها هناك . واأسفاه ! لماذا يبدو لنـــا ان الخير على مبعدة خطوة ، ومـــع ذلك حنيننا الاليم خلال الحياة يخطو خطوة بعد خطوة حتى نبلغ حافة القبر ! ان من النادر ان يجد الناس ماهو — فيما يبدو — مخصص لهم ، الى درجة أنهم يحتفظون بما أمكن أيديهم المحظوظة — ان تمسك به مرة ! والنعيم الذى يتحقق لنا سرعان مايفلت من أيدينا ، ونترك يفلت منا ماقبضنا عليه بشدة وحرص . ان ثم سعادة في متناولنا ، لكننا لانعرفها : ماذا أقول ! بل نحن نعرفها لكننا لانعلم قيمتها .

المنظر الثالث

ليونورا : (وحدها) كم أرثي لهذا القلب النبيل الجميل ! وأى مصير حزين قدّر لهذه النفس العالية ! واحرّ قلباه ! أحين تخسر هى تظنين انت أنك تكسبين ؟ هل من الضرورى حقا أن يبتعد عنها ؟ ألا تجعلين رحيله ضروريا حتى يخلو لك وحدك ذلك القلب وتلك العبقرية اللذين شاركك فيهما حتى الآن غيرُك ، وان لم تكن المشاركة على سواء ؟ هل من الأمانة ان تسلكى هذا المسلك ؟ ألست غنية بدرجة كافية ؟ ماذا يعوزك بعد ؟ زوج ، ولد ، ثراء ، مكانة ، جمال — لديك كل هذا ، فهل

تريدين أن تضيفيه هو الآخر والى كل هذه الخيرات ؟
هل تحبينه ، والا ، فلماذا لاتريدين الاستغناء عنه ؟
تستطيعين ان تعترفي لنفسك ــ ماأجمل ان يشاهد المرء
نفسه في مرآة هذه الروح النبيلة ! أولا تكون السعادة
مضاعفة العظمة والروعة اذا ما حملنا التغني بها وسما بنا
على مثل غيوم السماء ! هنالك فقط تكونين جديرة
بالحسد ! أنت لست ، ولاتملكين فقط ما يشتهيهالكثيرون
لكن الكل يعلم ويعرف ماتملكين ! وطنك يعرفك ،
وكل العيون تحدق فيك . أليس هذا قمة النعيم ؟ هل
اسم « لورا » هو وحده الذى ينبغي ان يرنّ على كل
الشفاه الرقيقة ؟ وهل خصّ بترركه Petrarca بحق تأليه
الجمال وبدونه كان سيكون مجهولا ؟ ليروني الانسان
الذى يمكن ان يقول عن نفسه انه نظير حبيبي ؟ كما
يمجده هذا العصر ، سينطق الاخلاف باسمه باحترام .
ماأجمل ان يكون الى جوارى في بهاء هذه الحياةالحاضرة
وان أخطو معه بخطوات مجنحة نحو المستقبل ! والزمن
حينئذ والشيخوخة لن يستطيعا أن يفعلا شيئا فيك ،
ولاالشهرة الوقحة التى تتلاعبعابثة بأمواج المجد. اشعاره
تؤمن لما يجب أن يغنى. ستكونين بعد جميلة ، وسعيدة ،
بعد زمان طويل من سوق الزمان لك في فلكه . لا بد
أن تمتلكيه ، والواقع انك لا تنتزعينه من الأميرة ، لأن
ميلها إلى هذا الرجل العظيم لا يختلف عن وجداناتها
الأخرى . صحيح أن هذه الوجدانات تتلألأ ، لكنـــه
لألأ القمر الخفى ، الـــذي يُلْقى في الليل على درب
المسافر نوراً شحيحاً ، إنها لا تشيع الدفء ، ولا تنشر

حولها اللذة ولا الفرحة بالحياة . الأميرة ستكون سعيدة ، إذا علمت أنــه سعيد بعيداً عنها ، كما كانت سـعيدة وهي تراه كل يوم . ثم أنني لا أريد أن أنفى نفسي مع حبيبى بعيدة عنها ، وعن هذا البلاط : سأعود ، وسآتي به معي . نعم ، لا بد أن يحدث هذا — لكن ها هو الصديق الخشن الطباع قادم ، لننظـر هل نستطيع أن نجعله أليفاً .

المنظر الرابع

ليونـــورا ، أنطونيـــو

ليونورا : انتظرنا السلام ، فأتيتنا بالحرب : كما لو كنت قادما من معسكر ، من معركة فيها تتغلب القوة ، وتحسـم الذراع ، لا من روما حيث الحكمة العالمية ترفع أيديها التى تمنح البركة ، وترى العالم عند قدميهـا مطيعاً لأوامرها .

أنطونيو : لا أملك ، يا صديقتي الجميلة ، الا قبول كلمات التوبيخ هذه ، لكن الاعتذار ليس بعيد المنال . ان من الخطر أن يبدو المرء طويلاً عاقلاً ومعتدلاً . وجنّيك الشرير قابع بالقرب منك يترصدك ويريـــد منك أن ينتزع قربان التضحية بين الحين والحين . لكنى مع الأسف قدمته إليه هذه المرة على حساب أصدقائي .

ليونورا : ان كنت قد شغلت طويلاً بغرباء وحاولت جهدك أن تكيّف سلوكك وفقاً لاهوائهم ، فانك حين عدت إلى أصدقائك أسأت فهمهم وتشاجرت معهم كأنهم غرباء .

أنطونيو : نعم ، يا صديقتي العزيزة ، وفي هذا يكمن الخطر !
في مواجهة الغرباء يراقب المرء نفسه ، ويراعي من حوله ، ويسعى لكسب رضاهم ، إبتغاء الوصول إلى غرضه ، وجعلهم يخدمون مقاصده ، لكن مع الاصدقاء يتساهل الإنسان ، ويعتمد على محبتهم ، ويسمح لنفسه بحركة استياء ، والوجدان أن يرخي العنان ، وهكذا يحدث للمرء أن يهين بسهولة أولئك الذين يحمل لهم القلب مودة أكبر .

ليونورا : في هذه الخواطر الهادئة ، أي صديقي العزيز ، أجد نفسك كلها ، وهذا يسرّني :

انطونيو : نعم ، يحزنني — وأنا أعترف بهذا عن طيب خاطر — أن أكون اليوم قد جاوزت كل اعتدال . لكن اعترفي بدورك ، انه إذا عاد المرء بعد أن بذل غاية الجهد في إنجاز عمل شاق ، عاد والعرق يسيل على جبينه ، ويأمل قرب مجيء الليل ، ان يستريح ، تحت الظل المنشود ، استعداداً لمتاعب أخرى ، عاد فوجد مكان الظل عاطلاً يتمدد على راحته ، أفليس من حقه أن يستشعر في قلبه بعض الضعف الإنساني ؟

ليونورا : ان كل ذا روحٍ إنسانية حقاً ، فينبغي عليه أن يشرك معه في هذا الظل رجلاً أحاديثه الطلية تزيد راحته عذوبة ، وعملة سهولة . ان الشجرة التي تلقي بهذا الظل كبيرة ، يا صديقي ، ولكي يجد المرء تحتها مكاناً فلا حاجة به أبداً لطرد غيره منها .

أنطونيو : يا ليونورا ، نحن لا نريد أن نلعب بالتشبيه هاهنا وها

هناك . فعلى هذه الأرض كثير من الخيرات التى لا نحسد الآخرين عليهـــا . وعن طيب خاطر نشارك الآخرين فيها ، لكن ثم كنز لا يمكن التخلي عنه إلاّ لمن هـــم أحق به ، وثم كنز آخر لن نتقاسمه أبداً عن طيب خاطر مع من هم أجدر به ـ فإن سألتنى ما هما هذان الكنزان اجبتك : احدهما هو الغار والآخر هو رضا النساء .

ليونورا : هل هذا الأكليل الذي زين جبين صديقنا الشاب قـــد أهان الرجل الجاد ؟ لكنك أنت نفسك ما كنت تستطيع أن تجد مكافأة أكثر تواضعــاً عن هذه عن جهـــوده وقصيدته الجميلة . فليس لفضل فوق أرضي يحلق في الهواء ويسحر العقول بالأصوات والصور الدقيقة، أقول : ليس لفضل كهذا من جزاء إلاّ رمز نبيل ، وشارة لطيفة . وإذا كان الشاعر لا يكاد يمس الأرض ، فهذا الجزاء الأوفى لا يكاد يمس ضفائر جبينـــه . ان عرفان المعجبين العقيم يطيب له أن يقدم إلى الشاعر غصناً غير خصب ، وهكـــذا يسددون دينهـــم نحوه بأرخص الأثمان ولا أظنك تنفس على الشهيد الهالـــــة الذهبية التى تزين رأسه الأصلع . صدقنى أن اكليل الغار حيث رأيته إنما هو رمز للآلام أولى من أن يكون رمزاً للسعادة .

انطونيو : هل يغرك الجميل يريد أن يعلمنى إزدراء الأباطيـــــل الدنيوية ؟

ليونورا : لست في حاجة إلى تعليمك تقدير كل خير بحسب قيمته الحقة . لكن يبدو مع ذلك أنه ينبغى أن يرى العاقـــل ،

مثله سائر الناس ، القيمة الحقيقية للخيرات التي يملكها .
أنت يا صديقي النبيل لا تطمح إلى أشباح الرضا والمجد . والخدمات التي بها تربط نفسك بأميرك وبأصدقائك تدخل في ميدان الفعل والحياة ، ويجب أن تكون قيمتها مثلهما واقعية وحية . غارك أنت هو ثقة الأمير ، وهي حمل خفيف ثمين يقوم على كتفيك ، ويزداد كل يوم ، ويلذ لك حمله ، ومجدك هو ثقة الجميع .

أنطونيو : ورضا النساء ، ألا تقولين عنه شيئاً ؟ لا أحسبك تدّعين أنه خير يمكن الاستغناء عنه .

ليونورا : هذا يتوقف على الكيفية التي بها نفهمه . أولاً لأنه لا يعوزك ، ثم ان استغناءك عنه أيسر من استغناء هذا الرجل الطيب (تاسو) عنه . وإني أسألك : ماذا تستطيع أن تفعل إمرأة تودّ الاهتمام بك على طريقتها ، وتأخذ في الانشغال بك ؟ عندك كل شيء نظام وأمن ، وأنت تهتم بشئونك كما تهتم بشئون الآخرين ، وعندك فعلاً ما يود المرء أن يقدمه إليك . اما تاسو فيشغلنا في المجال الذي هو من اختصاصنا . انه تنقصه آلاف من التفاهات التي يلذ للمرء أن تقدمها . انه يحب أن يلبس أجمل التيل ، وحلة من الحرير ، وبعض التطريزات ويطيب له التأنق في الملبس ، ولا يحتمل على جسده قماشاً خشناً ، هو من شأن الخدم ، وكل شيء على بدنه يجب أن يكون رقيقاً ، جيداً ، جميلاً ، نبيلاً . ومع ذلك فهو عاجز كل العجز عن أن يحصل على هذا كله

بنفسه ، أو أن يحافظ عليه إذا اقتناه ، انه دائماً في حاجة إلى المال وإلى الاعتناء . يترك قطعة من ثوبه هنا ، وأخرى هناك . ولا يعود أبداً من سفرة دون أن يضيع ثلث متاعه وأحياناً يسرقه خادم ، وهكذا يـا أنطونيو ، علينا أن نُعْنى به طوال العام .

انطونيو : وهذه العناية تجعله محبوباً أكثر فأكثر . يا له من فتى سعيد ، عيبوبه تعد فضائل ، ويسمح له في سن الرجال أن يتصرف تصرف الأطفال ، ويستطيع أن يستمد مجداً من ضعفه الرقيق . ينبغي عليك أن تصفحي عنى ، يا صديقتي العزيزة ، إذا أثار هذا الأمر المرارة في نفسي . أنت لا تقولين كل شيء ، ولا تقولين إلى أي مدى يمضي في جرأته ، وأنه أبرع مما يظن . انـــه يفخر بشعلتين(٢٤) ! ويعقد ويحلُّ عَقْد دسيستين . وبهذه الحيل يمتلك مثل هذه القلوب أهذا معقول ؟

ليونورا : حسن ! هذا وحده يبرهن على أن الصداقة وحدها هي التي تدفعنا إلى العمل . وحتى لو قابلنا الحب بالحب ، أفلا يكون في هذا جزاء عادل لهذا القلب النبيل الـذي ينسى ذاته تماماً ويعيش لاصدقائه وحدهم ، مستغرقاً في أحلام عذبة .

انطونيو : إذن دلّلوه ، وزيدوه تدليلاً ، وتلمسّوا حباً حيث لا يوجد إلا أنانية ، واجرحوا كل الأصدقاء المخلصين لكن بكل نفوسهم ، وادفعوا للمتكبر المغرور أتـاوة عن طيب نفس ، وحطموا — دون رحمة — الدائرة الساحرة للعشرة المليئة بالثقة .

ليونورا : لسنا متحيزات كما تتصور ، فكثيراً ما نسدي إلى صديقنا نصائح مفيدة ، ونريد أن ننشئه حتى يستطيع أن يستمتع بذاته على نحو أفضل ، ويمكن الآخرين من الاستمتاع به وما يؤخذ عليه نحن نعرفه جيداً .

انطونيو : ومع ذلك فأنتن تمدحن الكثير من الأمور التي تستحق التوبيخ . اني أعرفه منذ وقت طويل ، ومن السهل معرفة حقيقته ، لأنه من التكبر بحيث لا يخفي شيئاً . أحياناً يغوص في أعماق ذاته ، كما لو كان العالم كله محبوساً فيها ، وكما لو كان هذا العالم الذي استغرق فيه يكفيه ولا شيء مما يحيط به يبقى في نظره . انه لا يفعل شيئاً للإمساك به ، انه يدفعه وينطوي على نفسه ، راضياً عن ذاته — وفجأة يخرج من ذاته باندفاع ، مثلما تنطلق الشرارة التي لا ينتبه إليها أحد فتشعل الحريق في المنجم ، سواء كاذ ذلك عن سرور أو عن ألم ، عن غضب أو نزوة هوى ، هنالك يريد أن يمسك بكل شيء ، وان يملك كل شيء ، هنالك يجب أن يتحقق كل ما يتخيّل ، ويريد في لحظة أن ينبثق ما يحتاج انضاجه إلى عدة سنين ، ويريد في لحظة أن يزول ما لا يستطيع إزالته إلا مجهود السنين الطوال . ويطلب من نفسه المستحيل كيما يعطى لنفسه الحق في أن يطلبه من الآخرين . وروحه تريد أن تحيط بالغايات العليا لكل الأشياء ، وهو أمر لا يكاد يفلح فيه رجل واحد من بين ملايين الناس ، وهو ليس ذلك الرجل ، فينتهى بالانطواء على نفسه ، دون أن يصلح من أمر نفسه شيئاً .

ليونورا : انه لا يؤذى الآخرين ، بل يؤذى نفسه .

انطونيو : ومع ذلك فهو يجرح الآخرين ايما جرح . هل تستطيعين أن تنكري أنه في اللحظات التى ينتابه فيها الانفعال ويعصف به ، لا يجروء على صب الاهانة على الأمير ، وعلى الأميرة نفسها ، وعلى أي إنسان كان ؟ صحيح أن هذه الحالات ليست إلا نوبات ، لكن كفى ، فلقد تكررت هذه النوبات ، انه لا يضبط لسانه كما لا يضبط قلبه .

ليونورا : أميل إلى اعتقاد أنه إذا استطاع أن يبتعد بعضا من الوقت عن هنا ، فسيكون ذلك مفيداً له وللآخرين .

انطونيو : ربما نعم ، وربما لا . لكن ينبغي ألاّ نفكر في هذا الآن. لأني لا أريد أن أحمل على كاهلي مثل هذه الغلطة ، فلربما يبدو أننى أطرده ، لكننى لا أطرده . وفيما يخصنى يمكنه أن يبقى في بلاطنا هادئاً . وإذا شاء أن يتصالح معى ، وإذا أراد أن يتبع آرائي ، فإن في وسعنا أن نعيش جنباً إلى جنب دون أن نتصادم .

ليونورا : أنت اذن تؤمل ان تؤثر في نفس بدت لك منذ قليل قد ضاعت .

انطونيو : نحن نؤمل دائما ، أفليس الامل في كل شيء خيرا من اليأس ؟ فمن ذا الذى يستطيع أن يحسب حساب كل الممكنات ؟ انه أثير لدى أميرنا . ولابد اذن أن يبقى . واذا تبين أن سعينا في اصلاحه قد باء بالاخفاق ، فاننا سنحتمله مع ذلك ، فليس هو أول واحد .

ليونورا : لم أكن اعتقد أنك مبرأ عن الهوى والغرض الى هـــذا الحد . لقد تم تحولك بسرعة .

انطونيو : لابد أن تكون للسن على الاقل ميزة ، وهى انه اذا وقع المرء في خطأ فيمكنه ان يتماسك في الحال . في أول الأمر حاولتِ ان تستدرجيني للتصالح مع صديقك . والآن أنا أرجو منك هذا . افعلى كل ما في وسعك ليستر د هـــذا الرجل رشده ، وأن يعود كل شيء الى حاله قبل مرور وقت طويل . سأغدو أنا اليه ، حالما تبلّغيني انه هدأ ، وحالما تعتقدين ان حضورى لن يزيد البلاء . لكـــــن ما ينبغي عليك ان تفعليه، افعليه على الفور في هــــذه الساعة ، لأن ألفونسو سيرحل هذا المساء وسأرافقـــه . والى ذلك الحين ، وداعا !

المنظر الخامس

ليونورا : (وحدها) في هذه المرة لسنا على اتفاق ، ياصديقـــى العزيز ، ان مصلحتى لاتسير مع مصلحتك اليوم يـــدا ليد . وسأستغل هذه المهلة في محاولة كسب تاسّـــو . هيا بسرعـــة !

* ❋ *

الفصل الرابع

غرفة

المنظر الاول

تاسّو : (وحده) أتستيقظ من حلم ، وهل تخلى عنك الوهم الجميل فجأة ؟ وهل أخضعك النعاس بعد يوم من اللذات العالية ، وهل يُمْسِك ويُعَذّب ، في هذه اللحظة عينها ، نفسَك التى تنوء تحت ثقل أغلالها الثقيلة ؟ نعم ، أنت يقظ وحالم في آن معا . والى أين ذهبت الساعات المكللة بأكاليل الزهر ، والتى كانت تتلاعب حول جبينك ؟ وأين ذهبت الايام التى فيها روحك كانت تشق عنان زرقة السماء الفسيحة على أجنحة من الحنين الطليق ؟ ومع ذلك فأنت لا تزال تحيا ، وتشعر بنفسك ، تشعر بنفسك ولا تدرى هل أنت تحيا. أكان هذا ذنبي ؟ أم كان ذنب غيرى أن أكون هنا وعلّى سيماء المذنب ؟ هل ارتكبت جرما وعليّ ان أكفّر عنه ؟ أليس خطأى كله ميزة وفضلا ؟ لقد رأيت أنطونيو ، وأسلمت نفسى لارادتي الطيبة ، وللوهم الكاذب لقلبي ، وهم ان من كان فهو انسان ، وله شكل انسان . وغدوت اليه وذراعاى مفتوحتان ، فشعرت بالقفل والمزلاج ، ولم أشعر بان له قلبا . ومع ذلك فقد فكرت طويلا فيما ينبغى أن ألقى به هذا الرجل الذى داخلنى منه الريب منذ وقت طويل . لكن

مهما يكن ماجرى لك ، فاستمسك بهذا اليقين : لقد رأيتها ، هى ! كانت ماثلة هناك أمامى ! كلمتها ، وسمعتها ، نظرتها ، نبرتها ، معى كلماتها الحلوة ، كل هذا صار منذ الآن ملكا لى ، ولن يستطيع شىء أن يسلبنى اياه ، لا الزمان ، ولا المصير ، ولا الحظ المتقلب ! واذا كانت روحى قد انتشت بأسرع مما ينبغي ، واذا كنت قد هرعت الى قبول الشعلة في قلبي ، الشعلة التى تلتهمنى الآن ، فلن أستطيع الندم على ذلك ، حتى لو جر ذلك الى زوال سعادتي أبدا . لقد أخلصت للأميرة ، وعن فرحة قلبي أطعت الاشارة التى قذفت بي في الهاوية . فليكن ! على الاقل كشفتُ عن كوني جديرا بثقتها الغالية ، وهذه الثقة فيها عزاء لى ، ولاتزال كذلك حتى في هذه الساعة التى تفتحُ لى بعنف الابواب السود لمستقبل طويل من الاحزان — نعم . قضى الأمر وشمس الرضا الأجل اختفت فجأة من أمام عينى . والأمير يشيح بنظره عنى ، ويصرف رضاه عنى ، ويتركنى هاهنا حائرا شريدا على طريق مظلم ضيق . وسرب قبيح من الطيور المريبة ، رفقاء الليل القديم المنحوسين ، يخرج من وكره ، ويحيط رأسى بصرير أجنحته . أين اذن أوجه خطواتي ، هربا من التقزز الذى يضج من حولى ، وفرارا من الهاوية الفاغرة فاها أمامى ؟

المنظر الثاني

ليــــونــــورا ، تاسّــــو

ليونورا : ماذا جرى؟ أى تاسّو العزيز ، هل حماستك ، هل تشككك جرّاك الى هذا؟ كيف حدث ماحدث؟ كلنا في غُمّة من الأمر . أين اذن عذوبتك ، ورقة حاشيتك الطبيعية ، وحضور بديهتك ، واستقامة حكمك الذى يعطى لكل ذى حق حقه ، ورباطة جأشك التى تجعلك تتحمل سريعا ماتتعلم كل نفس نبيلة أن تتحمله ، بينما النفوس الزائفة لاتستطيع ذلك الا نادرا ، وضبطك الفطن للسانك وشفتيك؟ — ياصديقي العزيز ، أكاد لاأتعرّفك .

تاســو : وماذا لوكان هذا كله قد ضاع سدى؟ وماذا لو كان الصديق الذى اعتقدته ثريا ، قد تبدى لك فجأة شحّاذا لك الحق في أني لم أعد بعد ماكنته من قبل ، ومع ذلك فانه لم يتغير في شيء . وهذا يبدو لغزا ، لكنه ليس في الحقيقة كذلك . ان القمر الهادىء الذى يسحرك في الليل ، وضياؤه يؤثر في عينك وروحك تأثرا أخاذا لايقهر ، يحلّق أثناء النهار في السموات كأنه سحابة صغيرة شاحبة لايلتفت لها أحد . ومثلى مثلُه : لقد منعني بهاء النور العظيم ، أنت لاتزالين تعرفينني ، بيد أني لم أعد أعرف نفسى .

ليونورا : ياصديقي ، انا لاأفهم جيدا معنى ماتقول ، كما تقوله وضّح نفسك معى . هل اهانة هذا الرجل الخشن بالطبع

قد جرحتك الى درجة أنك تقوى على أن تنكر نفسك وتنكرنا نحن الى هذا الحد ؟ كاشفني .

تاســو : لست أنا المهان ، فها أنت ذى ترينني أعاقب على كوني أهنت غيرى . ان السيف يحلّ عقد الكلمات الكثيرة بسرعة وسهولة ، لكني سجين . أنت لاتكادين تعرفين لاتجزعى ياصديقتى الرقيقة — انك ترين صديقك في سجن . ان الامــير يعاقبني كمــا يعاقب التلميــذ . ولست أريد ، ولاأملك ان أجادله في هذا .

ليونورا : أنت تبدو متأثرا أكثر مما يجب .

تاســو : هل تظنينني من الضعف والطفولية الى درجة أن حادثا كهذا يمكن ان يجعلني أفقد رشدى بهذه السرعة ؟ ان ماحدث لايؤثر فيّ هذا التأثير ، وانما يؤثر فيّ ماينبئ عنه ويعنيه . دعي حسّادى وخصومى يتآمرون كما يشاؤون ! ان الميدان فسيح ولاعقبة تقف أمامهم .

ليونورا : انت تسيء الظن بالكثيرين عن غير حق ، هذا أمر استطعت ان أقتنع به . ان انطونيو نفسه لايحمل لك حقدا ، كما تتخيل . وشجار اليوم .

تاســو : اني أنحّيه جانباً هذا الشجار . وإنما آخذ انطونيو كما كان دائماً وما ظلّ عليه باستمرار . لقد كنت دائمــاً أتبرم بحكمته الخشنة وحذلقته التى يبديها في كل موضع . فقبل أن يبحث ما إذا كان من يستمع إليه قد وجد السبيل الصحيحة من قبل ، يأخذ في تلقينك ما تعرفينه خــيراً منه وأعمق . وسمعه فيــه وقر عن كل ما تقولينـــه له وهو دائماً يخطيء في تقديرك . أن يساء تقديرك ،

يساء من جانب دعي يعتقد أنه يسيطر عليك من علياء ابتسامة ! لست متقدماً في السن ولا حكيماً بالقدر الذي به أجيب عليه بالبسمات دون أن ينفذ صبري . وما كان يمكن أن يستمر هـذا طويـلاً ، بـل كان لا بـد من وقـوع القطيعـة بيننـا ، ولـو طال الوضـع أكثر من ذلك ، لكانت النتائج أخطر بكثـير . اني لا أعترف بغير سيد واحد ، هو من يطعمنى ، وأنـا أطيعه عن طيب خاطر ، أما من غيره فلا أريد أن ألقّن درساً ، أريد أن أكون حراً في أفكاري كما أنا حر في أشعاري ، ان العالم يضع من العقبات أمام فعلنا ما فيه الكفاية .

ليونورا : لكنه كثيراً ما يتحدث عنك بالتقدير .

تاسـو : بالرّفق ، تقصدين أن تقولي ، عن كياسة وفطنة . وهذا عينه هو الذي يستفزني ، لأنه يحسن اصطناع العبارات المعذوبة المتحفظة ، حتى أن مديحه ينكشف عن توبيخ ولا شيء أشد إيلاماً وجرحاً من المديح الصادر عن فمه.

ليونورا : كنت أود يا صديقي أن تسمع كيف كان يتحدث عنك فيما مضى وعن الموهبة التى حبتك بها الطبيعة على قدر أوفر مما حبت أيَّ ابنٍ آخر من أبنائها . انه لا شك يدرك من أنت ، وما لديك ، ويعرف قيمته .

تاسـو : أوه ! صدقيني ؟ إن القلب الأناني لا يستطيع أن ينجو من عذاب الحسد الضيق . ان مثل هذا الرجل يمكن أن يغتفر لإنسان آخر الثراء والمكانة والتشريفات ، لأنـه يقول لنفسه : هذه الخيرات أنت تملكها أو تقـدر

ان تملكها بالارادة والمثابرة ، ومتى مـا رضي عنك الحظ . لكن مالا يستطيع إلا الطبيعة وحدها أن تمنحه ، ومالا يستطيع أى عمل وأي مجهود ولن يستطيع أبداً أن يبلغه ، ومالا يستطيع الذهب ، ولا السيف ، ولا المهارة ، ولا المثابرة الظفر به — هذا هومالا يغتفر لأحد أبداً أن يملكه . انه لا يحسدني عليه ؟ وهو الذي يتوهم بروحه الغليظة انه قادر على إغتصاب الرضا مـن آلهات الفن ؟ وهو الذي يصف أفكاراً استقاها مـن شعراء مختلفين فيتصور نفسه شاعراً ؟ انه لأسهل عليه أن يسلّم إلى برضا الأمير ، وان كان يود أن يحتكره لنفسه وحده ، من أن يسلّم إليّ بالموهبة التى زَوّدَتْ بها بناتُ الآلهة هذه ذلكَ اليتيمَ المسكين الذي هو أنا !

ليونورا : آه لو استطعت أن ترى بوضوح كما أرى ! أنت تخطىء في معرفته ، انه ليس كما تقول .

تاســو : لو كنت مخطئاً في الحكم عليه ، فما أحلى أن أخطىء ! إني أرى فيه أخطر أعدائي ، ولن أعزّي نفسي ، إذا كان عليّ الآن أن أعتقد في إحسانه . ان من الجنون أن يريد المرء أن يكون منصفاً في كل شيء ، ان معنى هذا هو أن يقضى المرء على نفسه بنفسه . هل الناس منصفون هكذا فيما يخصنا ؟ كلا ، أوه ، كلا ! ان الإنسان ، هذا الكائن المحدود ، في حاجة إلى عاطفة مزدوجة : الحب ، والبغض . أو ليس في حاجة إلى الليل كحاجته إلى النهار ؟ وإلى النوم كحاجته إلى اليقظة ؟ إني فـي حاجة إلى هذا الرجل في المستقبل ، كموضوع لبغضى ،

بغضى الشديد ، ولن يستطيع شيء أن يسلبني متعة إساءة الظن والمزيد من اساءة الظن به .

ليونورا : إذا شئت ، يا صاحبي ، أن تصرّ على التفكير على هذا النحو ، فإني لا أرى كيف تستطيع البقاء بعد هذا في هذا البلاط . أنت تعلم ما ينعم به من ثقة ، ثقة عن حق.

تاسو : أنا لا أجهل ، يا صديقتي الجميلة ، انني هنا زائد عن الحاجة منذ زمن طويل .

ليونورا : كلا ، أنت لست كذلك ، ولن تكون أبداً ! بل أنت تعلم – على العكس – كم يحب الأمير ، وكم تحب الأميرة أن يشاهداك إلى جوارهما ، وحين تأتي دوقة دوربينو فإنها تأتي من أجلك بقدر ما تأتي من أجل أخيها وأختها . كلهم يحسنون الظن بك ، وعن حق ، ويولونك ثقتهم التامة .

تاسو : أوه ، يا ليونورا ! أية ثقة ؟ هل حادثني الامير مرة في شئون دولته ؟ ولو حدث له في بعض المناسبات أن يتحادث ، بوجودي ، مع أخته أو مع غيرها ، فلم يحدث أبداً أن سألني رأيي . دائماً لا نسمع إلا : انطونيو قادم ! لا بد من الكتابة إلى انطونيو ! اسألوا انطونيو .

ليونورا : أنت تتهم حيث ينبغي أن تشكر . انه يتركه لك الحرية الكاملة إنما يشرّفك على النحو اللائق بك .

تاسو : انه يتركني في هدوء ، لأنه يعتقد أنه لا نفع فيّ .

ليونورا : أنت لست عديم النفع ، تماماً لأنك تعيش في راحة . ومنذ وقت طويل وأنت تحمل في قلبك الضيق والهم ،

كطفل محبوب . لقد اعتقدت مراراً ، ولا أزال أعتقد دائماً ، كلما فكرت في الأمر : انك في هذا البلـــد المبارك ، الذي بدا ان الحظ قد اقتادك إليه ، لم تجد التربة التي تناسبك . اوه يا تاسو ! أأسدي إليك نصيحة؟ — أأفصح لك عن رأيي ؟ — يجب عليك أن تبتعد عن هنا .

تاســو : لا ترفق مــع المريض ، أيها الطبيب العزيز ! قدّم إليه الدواء ، ولا تسأل ان كان مراً . لكن هل المريض قابل للشفاء ، هذا ما ينبغي أن تسألني فعله اياه ، أيتها الصديقة الطيبة الحكيمة ! أنا أرى جيداً أنه قد قضي الأمر . في وسعي أن أصفح عنه ، ولكنه لن يصفح عني ، وهم في حاجة إليه ، أما أنا فيمكن الاستغناء عني ، وا أسفاه ! انه بارع ، أما أنا فلست كذلك ، وا أسفاه ! وهو يسعى لهلاكي ، أما أنا فــلا أستطيع ولا أريد أن أدافع عن نفسي ضدّه . وأصدقائي يتركون الأمور تجرى في مجراها ، ولا يرونها مثلما أنا أراها . ولا يكادون يبدون أية مقاومة ، حيث ينبغي عليهم أن يناضلوا . تعتقدين إذن أنه ينبغي علي أن أرحل ، وهذا رأيي أيضاً — وداعاً إذن ! سأتحمل هذا أيضاً — لقد فكرتموني — وأنا أيضاً أعرف كيف أجد في نفسي القوة والشجاعة على مفارقتكم !

ليونورا : أواه ! في البعد أيضاً تنجلي على نحو أصغر ما في الحضور يعكّر الحكم . ولربما تتعرف كم ستحاط بالمودة في كل موضع ، ومــا قيمة الشعور المخلص لدى الأصدقــاء

الحقيقيين ، وكيف أن العالم الواسع لا يعوّض عن أقرب الأصدقاء .

تاســو : سنجرّب هذا ! إني أعرف العالم منذ شبابي ، وكيف يتركنا بسهولة محرومين متوحدين بينما هو يسلك سبيله الخاص ، مثل الشمس والقمر وسائر الآلهة .

ليونورا : صدقني يا صديقي ، انك لن تتجدد لك هذه التجربة الأليمة مرة أخرى . وإذا جاز لي أن أسدي نصيحة ، فإني اقترح عليك أن تذهب أولاً إلى فيرنتسه ، وهناك ستحيطك صديقتك بعنايتها وحنانها ، لا تفــزع ، فإني سأكون هذه الصديقة . سأرحل بعد أيام قليلة لألحق بزوجي هناك ، ولا يمكنني أن أهيّىء شيئاً ألذ عنده وعندي من أن أجعلك تشاركنا حياتنا. ولا أضيف كلمة نافلة ، فأنت تعرف جيداً من أى أمير ستقترب ، وتعرف أي رجال تضم هذه المدينة الجميلة بين أسوارها ، وأي نساء أيضاً ــ أنت ساكت ؟ فكّر في هذا جيداً ! وقرر قرارك .

تاســو : ماتقترحينه يغريني حقا ، ويتفق تماما مع الامنية التي تجيش في نفسى سرّا ، لكنى لم أتوقعه أبدا ، فارجوك أن تتركيني أفكر . وسأتخذ قرارى دون تأخير .

ليونورا : أتركك وأنا أحمل أجمل أمل لك ، ولنا ولهذا البيت أيضا . فكرّ اذن ، واذا فكّرت جيدا ، فسيعزّ عليك أن تجد حلا أفضل من هذا .

تاســو : شيء آخر ، ياصديقتي العزيزة ! قولي لي : ماهي مشاعر

الاميرة تحوى ؟ ماذا قالت ؟ هل أنحت عليّ باللائمة الشديدة ؟ تكلمى بصراحة .

ليونورا : لما كانت تعرفك ، فقد سهل عليها أن تلتمس لك وجه العذر .

تاســو : هل فقدت شيئا من ثقتي لديها ؟ لاتتملقيني .

ليونورا : ان رضا النساء لايزول بهذه السرعة .

تاســو : وهل ستتركني أرحل بنفس راضية ، اذا رحلت ؟

ليونورا : ان كان لمصلحتك ، فلا أشك في ذلك .

تاســو : أو لن أفقد رضا الأمير ؟

ليونورا : تستطيع الاعتماد على كرمه ، دون خوف .

تاســو : وهل نترك الأميرة هكذا وحدها ؟ أنت راحلة ، ومهما يكن من ضآلة قدرى ، فاني مع ذلك أعلم أني شي ما بالنسبةاليها .

ليونورا : ان الصديق البعيد يظل دائما في صحبتنا طالما كنا نعلم عنه أنه سعيد . سيكون الأمر مايرام ، انيّ أراك سعيدا ولن ترحل من هنا ساخطا . لقد أمر الامير بأن يأتي أنطونيو لرؤياك . وهو يلوم نفسه على الكلمات المرّة التي جرحك بها . ارجوك ان تستقبله دون غضب ، كما سيأتي اليك .

تاســو : على أى حال ينبغى عليّ أن أواجهه .

ليونورا : واني أدعو لك السماء ياصديقي العزيز أن تفتح عينيك قبل أن ترحل ، وان تجعلك تفهم أنه في وطنك كله لاأحد يطاردك ، ولاأحد يكرهك ولاأحد يضطهدك

سرا . ولاشك انك تخطىء ، وكما أنك في العادة تخترع أساطير لامتاع الآخرين ، فانك وأسفاه بهذه المناسبة تخترع سلسلة غريبة من الاخطاء من أجل تعذيب نفسك وسأبذل قصارى جهدى لتحطيم هذه السلسلة المشئومة ابتغاء ان تسلك سبيل الحياة الجميل وأنت حر . وداعا واني ليخالج في صدرى أن أتلقى منك جوابا سعيدا عما قليل .

المنظر الثالث

تاسـو : (وحده) وهكذا ينبغي عليّ ان أقرّ بأنه لاأحد يكرهني ولاأحد يضطهدني ، وأن كل نسيج المكر والدسائس الخفية قد نسج في رأسي وحده ويجب عليّ أن أعترف بأني على خطأ ، وأني أسىء الى قوم لايستحقون أن أسيء اليهم . وهذا في الوقت الذى فيه يتجلى حقى أمام الشمس واضحا وضوح غدرهم ونذالتهم . وعليّ أن أشعر بعمق كيف أن الامير ، دون أغراض خفية ، يمنحني عطفه ورضاه ويفيض عليّ بنعمه السابغة ، وهذا في الوقت الذى هو فيه من الضعف بحيث يسمح لاعدائه بأن يعكروا نظره ويقيّدوا يديه قطعا .

أما أنه خُدع فهذا مالايستطيع أن يتبيّنه ، أما أنهم يخدعونه فهذا مالا أملك أن أثبته له ، ومن أجل أن ينخدع بهدوء ، ولكن يمكن خداعه بكل سهولة ، فينبغي عليّ أن أسكت ، بل أكثر من هذا : عليّ أن أترك المكان .

ومن ذا الذي يسدى إلى هذه النصيحة ؟ ومن الـــذي يضغط عليّ بمهـــارة لقبولها ، باسم الاخلاص والمحبة؟ انها ليونورا نفسها ، ليونورا سانفتالي ، الصديقة الرقيقة الحنون ! آه ! أنت أيضاً أنا أعرفك الآن ، أوه ! لماذا وثقت أبداً بكلماتها ! كلا ، لم تكن مخلصة ، حينما كانت بحرارة تؤكد لي عطفها ، ولطفهـــا ، بكلمات معسولة ! كلا ، ان قلبها كان ولا يزال قلباً غداراً ، بخطى خفيفة حصيفة تسير نحو الرضا والعطف .

وكأين من مرة لذّ لي أن أنخدع بها كما انخدع الآخرين وفي الحقيقة ، ما الذي خدعني اللهـــم الا الغرور ! نعم ، أنا عرفتها وتِهتُ فخراً بذلك . وكنت أقـــــول لنفسي : إذا كانت هكذا تجاه الآخرين ، فإنها تجاهلك أنت مخلصة صادقة . والآن ، أتبين الحقيقية ، ولكنى أتبينها متأخراً جداً : لما كنت مرضياً عنى ، كـــانت تتلطف معى ، مع محظوظ السعادة . وحينما سقطت ، أشاحت بوجهها عنى ، كما يفعل الحظ .

الآن تأتي إلي ، أداة في أيدي أعدائي ، تتقرب زاحفة ، وبلسانها المصقول ، هذه الحيّة الصغيرة تصفر في أذني بأصوات ساحرة ! . كم بدت خافضة جناح الرقة ! بالغة المودّة أكثر من أي وقت مضى ! أية عذوبـــــة في كل كلمة تخرج من فمها ! بيد أني سرعان مــــا كشفت عن النية الغادرة تحت الملق الناعم : لقــــد كان جبينها يناقض بكل وضوحٍ ما كان ينطق به فوها . وأنا أحسّ بسرعة حين يُسْعَى إلى طريق قلبي بعواطف

لا تصدر عن القلب . عليّ إذن أن أرحـــل ؟ عليّ أن أسافر إلى فيرنتسه بأسرع ما أستطيع ؟ ولماذا إلى فيرنتسه بالذات ؟ الأمر واضح أراه بكل جلاء . هناك البيت الجديد(٢٥) من آلى مدتشي . أوه ! انه ليس في عداء مع فرارا ، لكن الحسد الخفي يفصل بيده الباردة أنبـــــل النفوس بعضها عن بعض . إذا تلقيت هناك من أولئك الأمراء الكرام آيات تدل على رضاهم عليّ ، كما هو متوقع لي أن أناله من غير شك هناك ، فما أيسر عـــلى رجل البلاط أن يجعل إخلاصي وعرفـــاني بـــالجميل مشكوكاً فيهما !

نعم ! أريد أن أرحل ، لكن لا كما تهوين ، أريد أن أرحل ، لكنى سأذهب إلى أبعد ممـــا تظنين . ماذا أفعل هنا ؟ ماذا يمسك بى هنا ؟ أوه ! لقد أدركـــتُ جيداً معنى الكلمات التى انتزعتها من شفاه ليونورا ! بصعوبة بالغة ، انتزعتها منها مَقْطعاً بعد مقطع ، ومع ذلك فأنا أعلم الآن ، تمام العلم ، ما هو رأي الأميرة — نعم ، نعم ، هذا صحيح . لا تيأس يا قلبي : « ستتركنى أرحل بنفس راضية ان كان هذا لمصلحتى . » آه لو كان في قلبها وجدان يستطيع أن يدمرّ سعادتي ويدمرّ نفسي ! أوثر أن أستشعر يد الموت على تلك اليد الباردة ا لجافة التى تترك يدى — اني راحل . الآن خذ حذرك ، ولا تنخدع بمظاهر الصداقة أو الإحسان الخداعة . لـــن يخدعك أحد ، ان لم تخدع أنت نفسك .

المنظر الرابع

أنطونيـــو ، تاســـــو

انطونيو : هأنذا ، يا تاسوّ . قد جئت لأقول لك كلمة ان شئت وإن استطعت أن تستمع لي بهدوء .

تاســو : أنت تعلم جيداً انني ممنوع من الفعل ، لهذا يخلق بي أن أنتظر وأن أستمع .

انطونيو : أجدك هادئاً كما كنت أتمنى ، ويسرني أن أتكلم معك بكل صراحة . وقبل كل شيء فإني باسم الأمير أحل القيد الرقيق الذي بدا أنه يقيدك .

تاســو : الهوى يعيد إلي الحرية ، كما سلبها مني . أوافق ، ولا أطالب بأية محكمة .

انطونيو : وبعد هذا أقول لك عن نفسي : يبدو أنني جرحتك بكلماتي جرحاً أعمق مما شعرت أنا وكنت نهباً لانفعالات مختلفة . لكن لم تفلت من شفتي أيـــة كلمة مهينة . فبوصفك رجلاً نبيلاً ، ليس ثم ما يدعو إلى انتقامك ، وبوصفك إنساناً لن تحرمني من صفحك .

تاســو : ما الذي يجرح أكثر : الاذلال أو السب ، هذا أمر لا أريد أبداً أن أبحث فيه : ان الأول ينفذ حتى النخاع والثاني يخدش البشرة . ان سهم السب يرتدّ على من يتوهم أنه يجرح ، والسيف إذا أدير بمهارة يرضى رأى الجمهور بسهولة : — اما القلب الذي يذل فمن العسير أن يبرأ .

انطونيو : علي الآن أن أصـــر وأن أقول لك : لا تتّراجع ، حقق أمنيتى ، وأمنية الأمير الذي بعث بي إليك .

تاســـو : أنا أعرف واجبي وأسلّم . مصفوح عنك ، بقدر مـــا يكون ذلك ممكناً ! ان الشعراء يحدثوننا عن رمح يستطيع بلمســـه الشافي ان يشفي الجروح التى أحدثهـــا(٢٦) . ولسان الإنسان له هذه القدرة ، وأنا لا أريد أن أقاومه بكراهيته .

انطونيو : اشكر لك . وأود بكل ثقة أن تضعنى موضع التجربة وتمتحن إرادتي أن أخدمك . قل لي ، هل أستطيع أن أقدم إليك خدمة ؟ أود أن أثبت ذلك .

تاســـو : لقد قدّمت إلي ما كنت أتمناه . رُدّت إلي حريتى ،إذن فاسمح لي ، أرجوك أن استعملها .

انطونيو : ماذا عساك تقصد ؟ تكلم بوضوح .

تاســـو : أنت تعلم ، لقد فرغت من قصيدتي ، ومـــع ذلك فلا تزال بعيدة عن التمام . واليوم وضعتها بين يدي الأمير وأردت في نفس الوقت أن أوجه إليه رجاء . ان عدداً كبيراً من أصدقائي مجتمعون الآن في روما ؛ وقـــــد أخبروني فرادى بآرائهم في مواضع عديدة من قصيدتي ، وكتبوا إلي رسائل بذلك ، وفي مرات كثيرة استفدت من آرائهم ، لكن بقيت أشياء يبدو لي أنها تحتاج إلى مزيد من التفكير ، وثم أيضاً مواضع لا أود أن أغيرها إذا لم ينجحوا في إقناعي أكثر مما فعلوا حتى الآن . وكل هذا لا يمكن أن يعالج بالرسائل : وان حديثاً بالصوت الحي لكفيـــل بأن يحل الصعوبات . لهـــذا قررت أن

ألتمس اليوم من الأمير هذا الفضل ، لكن الفرصة لم تواتني ، والآن لا أجـروء على إبداء رجائي هـذا ، وأود الحصول على هذه الاجازة بتوسطك .

انطونيو : يبدو لي أنه ليس من الحكمة أن تبتعد في الوقت الذي يرشحك عملك وقد تم ، لعطف الأمير والأميرة . ان يوم الحظ مثـل يوم الحصاد . يجب العمل حالما كان ناضجاً . وبابتعادك أنت لا تربح شيئاً ، ولربما خسرت ما كسبت . والحضور إله قدير : فتعلم أن تعرف تأثيره وابق هنـا .

تاسـو : ليس لدي ما أخشاه : ألفونسو نبيل ، وكان دائماً كريماً معي ، وما أتمناه أرجو أن أدين به لقلبه وحده ، ولا أريد رضا يحصل عليه بالمفاجأة ، ومنه لا أريد قبول شيء يمكن أن يندم يوماً على أنه أعطاه .

انطونيو : إذن لا تلتمس منه أن يدعك ترحل الآن ، انه سيفعل ذلك كرها ، بل إنني أخشى ألاّ يأذن به .

تاسـو : انه سيأذن ، لو كان الرجاء بالعبارة المناسبة ، وللنجاح في هذا ما عليك إلا أن تريده .

انطونيو : لكن قل لي ، ما هي الأسباب التي ينبغي علي أن أسوقها؟

تاسـو : دع قصيدتي تتكلم بواسطة كل مقطوعة من مقطوعاتها ! ما أردته أمر ممدوح ، وإن كان الغرض الذي استهدفته بقي بمعزل عن قواي . لم أدخر جهداً ولا عناية . والأيام الجميلة ذات المجرى الساجي ، والليالي العميقة ذات الساعات الصامتة ، كلها كرستها لهذه القصيدة الحافلة بالتقوى . وبتواضع رجوت أن أقترب مـن فحـول

العصور الماضية ، وفي جـــرأتي أمّلت في أن أوقـــظ معاصرينا من سباتهم الطويل للقيام بالمغامرات النبيلة ، وربما بعد ذلك المشاركة في أخطار ومجد الحرب المقدسة بجيش من المسيحيين النبلاء . وإذا كان على قصيدتي أن توقظ النفوس السخية ، فيجب أن تكون جديـــرة برضا أفضلها . وإني لأدين لالفونسو بما صنعت ، وأود أن أدين له أيضاً بالكمال .

انطونيو : لكن ألاّ يوجد مع هذا الأمير أناس آخرون يحسنون ارشادك مثل الذين في روما ، إنما ها هنا ينبغي عليك أن تتم عملك ، ها هنا المكان الصحيح ، ثم ان أردت بعد ذلك أن توسع المجال أمام نشاطك ، فاهرع إلى روما .

تاســـو : كان الفونسو أول من ألهمني ، ولا شك أنه سيكون مرشدي الأعلى . أمـــا عن نصائحك ونصائـــح الناس الحكماء الذين يشتمل عليهم بلاطنا ، فإني أعرف كل قيمتها . أنتم الذين ستحكمون إذا لم يستطع أصحابي في روما أن يقنعوني ، لكن يجب علي أن أرى هـــؤلاء الأصدقاء . ان جونزاجا(٢٧) جمع لي محكمة علي أن أمثل أمامها . وأنا شديد اللهفة على الـــوصول إلى ذلك اليوم . فلامينو ، دي توبلي ، انجليو ، بارجا ، أنطونيا أنطونيانو واسبيرون اسبيروني(٢٨) ، . يا لها من أسماء طنانة ! تثير الثقة والقلق في نفسي المطواعة للآراء .

أنطونيو : أنت لا تفكر إلا في نفسك ، وتنسى الأمـــير . أقول لك : انه لن يتركك ترحل ، ولو وافق على ذلك فلن يكون عن طيب نفس . وأنت لا تريد أن تلتمس شيئاً

لا يمكنه أن يمنحك إياه إلا آسفاً . وهل ينبغي لي أن أقوم بمسعى أنا شخصياً لا أوافق عليه ؟

تاسو : أترفض لي أول خدمة أطلبها منك لامتحان الصداقة التي عرضتها علي ؟

انطونيو : الصداقة الحقة تتكشف بأن يعرف المرء كيف يرفض حين ينبغي أن يرفض والمودة كثيراً ما تجلب خيرات ضارة ، حين تستجيب لإرادة من يهيب بها أكثر مما تستجيب لمصلحته . في هذه اللحظة ، يبدو أنك تستحسن ما تشتهيه بحماسة ، وتريد أن تنال ما تشتهي دون تأخير . وهكذا من يخطىء يستبدل العنف بالحق والقوة اللذين يعوزانه . ان واجبي يأمرني بأن أهدىء — قدر المستطاع — السرعة المحمومة التي تدلس عليك الرأي .

تاسو : منذ وقت طويل وأنا أعرف استبداد الصداقة هذا ، ومن رأيي أنه أشد ألوان الاستبداد بعداً عن الاحتمال . أنت تفكر على نحو يختلف عن تفكيري ، وهذا يكفيك لأن يجعلك تعتقد أن تفكيرك صواب . اني أقرّ عن طيب خاطر بأنك تريد لي الخير ، لكن لاتطالبني بأن أجده أنا أيضاً على هذا الطريق .

انطونيو : وهل ينبغي لي ، منذ الخطوة الأولى ، وببرود أن أسيء إليك ، وأن تقتنع تماماً وبكل وضوح أنني أسيء اليك ؟

تاسو : أريد أن أحررك من هذا الهم ! ان كلمتك هذه لن تقفني . لقد قلت لي أنني حر ، وأن هذا الباب الذي يقود إلى الأمير مفتوح . عليك إذن أن تختار . اما انت واما أنا ! إن

الأمير على وشك الرحيل . لهذا لاتوجه لحظة لاضاعتها
اخـتر بسرعة ! فان لم تذهب أنت ، فسأذهب أنـا
وليكـــن ما يكون .

أنطونيو : اسمح لى على الأقل بمهلة قصيرة ، انتظر عودة الامير !
لكن أرجوك لاتذهب اليه اليوم .

تاســو : بلى ، في هذه الساعة عينها ، ان كان هذا ممكنا ! أقدامى
تحترق على أرض المرمر ، ولن تهدأ روحى الاحين
يحيط غبار طريق الحرية بسيرى السريع . ارجوك !
أنت ترى كم سأكون غير موفق اذا تحدثت مع مولاى
في هذه اللحظة ، انت ترى – هل استطيع اخفاء ذلك
انى لاأستطيع في هذه اللحظة ان أضبط نفسى . ولن
تستطيع ذلك أية قوة في العالم ! السلاسل وحدها هى
التى تقدر على أن تمنعنى ! ان ألفونسو ليس طاغية ،
لقد أعاد الىّ الحرية . كم كان يسرني في الماضى ان
أطيع الاوامر التى يصدرها الىّ اما اليوم ، فأنا عاجز
عن الاطاعة . دعنى حرا اليوم واليوم فقط ، حتى
تستطيع روحى ان تستجمع نفسها ! وعما قليل سأجد
من جديد طريق واجبى .

أنطونيو : انت تلقى الشك في نفسى . ماذا ينبغى علىّ ان أفعل ؟
نعم ، ها أنذا أرى جيدا ان الخطأ يصيب بالعدوى .

تاســو : اذا كان يجب علىّ أن أصدّقك ، واذا كنت تريد لى
الخير حقا ، فافعل بحسب رغبتى ، افعل ماتستطيع .
حينئذ يدعنى الأمير أرحل ، دون ان يسحب رضاه
عنى ومعونته . سأدين لك بهذا ، وسأقرّ به عن طيب

خاطر . لكن ان كنت في قلبك تغذو كراهية قديمة ضدى ، واذا كنت تريد أن تنفيني عن هذا البلاط ، واذا كنت تريد أن تقلب مصيرى الى الابد ، وأن تطردني دون سند ولامعين في هذا الكون الشاسع ، فاستمر في اصرارك ، وارفض رجائي .

أنطونيو : مادام ينبغى علىّ ان أسيء اليك ، ياتاسو ، اذن فلأختر الطريق الذى تختاره أنت بنفسك . والنتيجة ستبين من منا كان المخطىء ! أنت تريد أن ترحل ! هاأنذا أتنبأ لك : لن تغادر هذا البيت الا وعما قليل ستعتمل الشهوة الحارة للعودة اليه ، لكن عنادك سيسوقك الى الأمام . ان الالآم والمتاعب والاحزان تنتظرك في روما ، ولن تبلغ هدفك هاهنا ولاهاهناك . ولاأقول لك هذا بعدُ على سبيل النصح ، وانما أعلن لك فقط ماسيحدث لك بعد قليل ، وادعوك منذ الآن ، او مقدما ، الى ان تثق بي ، مهما أصابك من بلاء . وسأغدو الآن للتحدث مع الأمير ، حسب طلبك .

المنظر الخامس

تاســـو : (وحده) نعم ، اذهب ، اذهب وأنت مقتنع بأنك جعلتنى أقتنع بما تريده أنت . اني أتعلم أن اخفى فكرى لانك أستاذ كبير ، وأنا تلميذ لقن . وهكذا ترغمنا الحياة على ان نظهر بمظهر أولئك الذين نقدر ، بجرأة وأنفة ، على احتقارهم . آه ! كم يتضح لى الآن زيف فن نسيج البلاط ! أنطونيو يريد ان يطردني من هنا ،

دون أن يعطى انطباع أنه هو الذى يطردني . انه يمثل دور الرجل المتسامح العاقل ، حتى يروا فيّ مريضا أرعن ويجعل من نفسه وصيا عليّ ، ليظهر بمظهر الطفل الغر من لم يستطع ارغامه على ألايكون غيرخادم . وهكذا يحيط بالغيوم جبين الامير ونظرة الاميرة .

لابد من كبح جماعى ، هكذا يقول : صحيح أنالطبيعة حبتني بعبقرية بديعة لكنها مع الأسف أفسدتهذهالموهبة الثمينة بألوان عديدة من الضعف ، وبكبرياء جامحة ، وبحساسية مفرطة ، وعناد مظلم . الأمر هكذا : القدر قد صنع الرجل الفريــد الذي هو أنا ، صنعه على هذا النحو ، وينبغي أن يؤخذ كما صنعه القدر وينبغي تحمله . وربما الاستمتاع بما يستطيع أن يقدمه من متعة في أيام نعيمة ، وكأن هذا مكسب غــير منتظر ، وعلى كل حال ، فلا مندوحة عن تركه يحيا ويموت ، كما ولد .

هل لا أزال أقر بادارة ألفونسو الراسخة ، الذي يقدر على مواجهة أعدائه ومد يد المعونة الصادقة إلــى أصدقائه ؟ وهل أُقرّبه على النحو الذي يعاملني بـــه في هذه المناسبة ؟ نعم أن أتبين الآن جيداً مـــدى شقائي ! ذلك هو قدري : وهو أن من يظل راسخاً مخلصاً أميناً للآخرين ، انما يتغير فقط فيما يتعلق بي ، يتغير بسهولة لدى أقل نسمة ، وفي لحظة .

ألم يكن مجيء هذا الرجل ليقضى في لحظة عــلى كل مصيري ؟ أليس هو الذي قلب عالي بناء سعادتي سافله ؟ أوه ! لماذا لا بد لي من القيام بهذه التجربــة ، واليوم بالذات ؟ كما تدافع الكل للحاق بي . كذلك

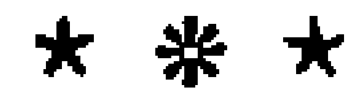
يتدافع الكل بنفس السرعة الآن لتركي . كان كل واحد يسعى لاجتذابي إليه ، واحتضاني بين ذراعيه ، والآن يرفضني كل واحد ويتجنبني . ولماذا هذا ؟ هل هو وحده يرجح كل الفضل وكل الحب اللذين توافرا عندي حتى الآن ؟

نعم ، كل شي يفر مني الآن . حتى أنتِ ! حتى أنتِ ! أيتها الأميرة المحبوبة ، أنت تتهربين مني . في هذه الساعات الكئيبة ، لم تبعثْ إلي بعلامة واحده من علائم رضاها . هل استحققت هذا منها ؟ — ايه أيها القلب المسكين ! يا من وجدت من الطبيعي أن تعبدها !

حين كنت أسمع صوتها ، كم كنت أشعر بانفعال لا نظير له ينفذ في صدري ! وحين كنت ألمحها ، كان نور النهار الساطع يفقد عندي كل بريقه ، وكانت عينها وثغرها يجتذبان على نحو لا أقوى على مقاومته وركبتاي تنحنيان ، وكان علي أن أوفر كل قوى عقلي كي أستطيع أن أبقى واقفاً ، ولكيلا أنهار عند قدميها . وكان من العسير علي أن أبدد هذا الدوار . هيا كن راسخاً أيها القلب ، وأنت أيها العقل لا تدع الجنون يسدل الظلال على وضوحك ! نعم ، هي أيضاً ! أو أجرؤ على أن أقول ذلك ؟ نعم لا أكاد أصدق . أو بالأحرى أنا أصدق ، لكني أود أن أسكت . هي أيضاً ! هي أيضاً ! أصفح عنها كل الصفح ، لكن لا تُخْفِ ذلك عن نفسك : هي أيضاً ! هي أيضاً !

أوه ! هذه الكلمة التي يجب علي أن أشك فيها ،

طالما عاش في صدري أثارة من الاعتقاد ، نعم هـــذه الكلمة تنعشني كأنها حكم نهائي للقدر ، كأنها نقطـة نهاية على هامش اللوح النحاس الذي تسجل عليـــه أكداس آلامي فتملؤه . من هذه اللحظة فقط يبدأ تاريخ قوة أعدائي ، لأنه منذ اليوم وإلى الأبد تفارقني كل قوة . أني له أن أناضل ، بينما هي في صفوف أعدائي ، أني لي أن أقدر بصبر على انتظار أيام أفضل ، إذا لم أر من بعيد يدها تمتد نحوي ؟ وإذا لم أر نظرتها تتلاقى مع نظرتي التى تتضرع إليها . لقد تجاسرت أنت على تصور ذلك والنطق به ، والحقيقة الواقعية ماثلة هناك ، قبل أن تستطيع أنت أن تخشاها . وقبل أن يمزق اليأس عقلك بمخالبه النحاسية ، اكتف باتهام مرارة مصيرك وبأن تكرر لنفسك : هي أيضاً ! هي أيضاً !



الفصل الخامس

حديقة

المنظر الاول

ألفونسو ، أنطونيو

أنطونيو : باشارة منك ذهبت مرة ثانية للقاء تاسو ، وهأنذا عائد من عنده . بذلت له نصحي ، وحاولت الضغط عليه ، لكنه مصرّ على فكرته ، ويطلب بالحاح أن توافق على أن يسافر لقضاء فترة من الوقت قصيرة في روما .

ألفونسو : هذا أمر يضايقني ، علي أن أعترف بهذا ، وأفضل أن اقول لك ذلك على أن أخفى ضيقي وبهذا أزيده . هو يريد أن يرحل ، حسن ، أنا لا أمنعه . هو يريد أن يرحل ، يريد أن يسافر إلى روما ، ليكن ! بشرط ألا يسلبني إياه شبيوني جونزاجا والمدتشي الماكر ! ما جعل ايطاليا عظيمة ، هو أن كل واحد منها يتصارع مع جاره من أجل امتلاك العباقرة واستخدامهم . وفي رأيي أن مثل الأمير الذي لا يقدر أن يحيط نفسه برجال عباقرة مثل أمير لا جيش له : ومن أذنه صماء عن صوت الشعراء هو رجل متوحش ، مهما يكن عظيماً في نواح أخرى . لقد وجدت تاسو ، واصطفيته لنفسي ، وأنا فخور بأن أقول انه في خدمتي ، وبعد أن بذلت له كل ما بذلت ، لا أريد أن أقف ، إلا إذا قسرت على ذلك قسراً .

انطونيو : أنا في غمة من أمري ، لأني في نظرك مسئول عما حدث اليوم . وأنا أعترف بخطئي دون مواربة ، خطئي الذي يلتمس المغفرة من احسانك وفضلك ، لكن لو خطر ببالك أنني لم أدخر وسعاً في التصالح معه . لكن يبقى لي عزاء . أوه ! كلمني بنظرة حانية ، حتى أستطيع أن أملك أمري وأن أسترد ثقتي بنفسي .

الفونسو : لا ، يا أنطونيو ، اطمئن ، فإني لا أحمّلك المسئولية ، فأنا أعلم مزاج تاسو تمام العلم ، وأعلم جيداً ما قمت أنا به من أجله ، وكم ترفقت أنا به ، وكم نسيت أيضاً ما كان من حقي أن أطالبه به . ان الإنسان يستطيع أن يبسط سلطانه على كثير من الأشياء ، أما على خلقه فلا يمكن أن ينتصر إلاّ الشقاء والزمان .

انطونيو : حين يرى المرء الآخرين يفعلون الكثير من أجله ، فمن العدل أن يعمل على أن يتساءل كيف يمكنه أن يخدمهم . وإذا ثقف المرء عقله إلى هذه الدرجة ، وحشد في رأسه كل المعرفة الإنسانية ، واقتنى كل المعارف الميسرة لنا ، أفلا ينبغي عليه أن يتعلم ، تعلما مضاعفاً ، أن يضبط نفسه ؟ وهل يفكر هو في هذا ؟

ألفونسو : ليس من حظنا أن نستمتع بالراحة ! في نفس اللحظة التي نظن أننا بسبيل الاستمتاع بها ، نفاجـأ بعـدو ، لنمارس شجاعتنا ، أو بصديق لنمارس صبرنا .

انطونيو : أول واجبـات الإنسان ، وهو أن يختار الأطعمـة والأشربة ، لأن الطبيعة لم تضيق عليه في ذلك كما ضيقت على الحيوان ، هل أداه تاسو ؟ ألاّ يـسدع نفسه تلهث

وراء كل ما يغرى حلقه ، مثل الطفل ؟ متى يمـزج بخمره ماء ؟ التوابل ، والسكريات ، والأشربة القوية هو يدفع بها الواحدة تلو الأخرى إلى شراهته ، ثم بعد ذلك يشكو من اضطراب عقله ، وغليان دمه ، وعنف مزاجه ، ويتهم الطبيعة ، ويتهم القدر . وكأين مـن شاهدته يتجادل مع طبيبه بمرارة وجنون ! كان قريباً أن يثير الضحك ، لو كان مما يضحك أن نرى إنساناً يتألم ويؤلم الآخرين . « أشعر بهذا الداء » هكذا كان يقول بجزع وضيق. «ماذا يفيدك أن تشيد بصناعتك ؟ اشفني ! فيرد الطبيب : « اذن عليك بالامتناع من تناول هذا أو ذاك » – « هذا يستحيل عليّ . » – « اذن تناول هذا المشروب .– « أوه ، كلا ، انه كريه الطعم ويثير الغثيان في نفسي . » – « اذن اشرب ماء . » – « ماء ؟ أبدا ! أنا أكره الماء ، كانسان عضه كلب مسعور . » –«من المستحيل اذن اسعافك .»–« لماذا ؟ »–« داء جديد سيضاف الى ماعندك من أدواء ، وان لم يستطع قتلك ، فعلى الاقل سيزيد في تعذيبك يوما بعد يوم . » – « حسن لماذا أنت طبيب اذن ؟ أنت تعرف مرضى ، فيجب عليك ايضا ان تعرف علاجه ، وأن تجعل الدواء لذيذا ، حتى لاأحتاج الى ان أتعذب من أجل الخلاص من العذاب . » أنت نفسك تضحك ، ومع ذلك فهذا صحيح . ولاشك انك سمعته ينطق بمثل هذه العبارات

ألفونسو : كثيرا ماسمعته ، وكثيرا ماالتمس له العذر .

أنطونيو : من المؤكد ان حياة غير معتدلة كما أنها تجلب لنا أحلاما مزعجة ثقيلة ، فانها تجعلنا في النهاية نحلم في وضح

النهار . وهل سوء ظنه بالناس إلا حُلم ؟ ! أينما ذهب ظن انه محاط بالاعداء . لاأحد يرى عبقريته دون ان يحسده عليها ، ولاأحد يمكن ان يحسده دون ان يعتقد انه مكروه ومضطهد اضطهادا شديدا كم من مرة ازعجك بشكاواه : أقفال كسرت ، رسائل اعترضت سمّ ، خنجر ! وأى شيء لايستطيع خياله أن يخترعه ! أمرت بالبحث والتحرى ، وتوليت التحقيق بنفسك ، فماذا وجدت ؟ مجرد شبهة . انه لايجد ملاذا أمينا عند أى أمير ، ولاعونا ثمينا في صدر أى صديق . ألمثْل هذا المجنون تريد ان تتعهد بالراحة والسعادة ، وعلى يد مثل هذا المخبول تريد ان تنال السرور ؟

ألفونسو : كنت ستكون على حق ياأنطونيو لو أننى أردت أن أجد فيه منفعة مباشرة ! صحيح أن من الميزة عندى الا أتوقع مكسبا مباشرا غير مشروط . لكن لايفيدنا كل شيء بنفس الطريقة . وحين يريد المرء استخدم ألات عديدة ، فيجب ان نطلب من كل واحدة منها ماتستطيع أن توفره ، وعلى هذا النحو تكون الاستفادة حسنة . هكذا علمنا آل مدتشى ، والبابوات أنفسهم علمونا ذلك بالمثل الذى قدموه . فهؤلاء الناس تحملوا الكثير من العباقرة بحلم ، وصبر ، واتساع أناة ، مع ان هؤلاء العباقرة كانوا يتظاهرون بأنهم يستطيعون الاستغناء عن كرم أولئك في الوقت الذى يعتمدون فيه عليهم !

أنطونيو : من ذا الذى لايعرف ، أى أميرى ، أن آلام الحياة

هى وحدها التى تعلمنا قيمة خيراتها ! لقد حصل تاسو وهو شاب ، على الكثير الذى يستطيع أن يستمتع به باعتدال . آه لو أنه كان عليه أولا ان يكافح كفاحا مريرا من أجل ان يحصل على ماأغدق عليه بأيد مليئة مفتوحة ! هنالك كان سيستخدم كل قواه برجولة ، ويشعر شيئا فشيئا بالرضا . ان نبيلا فقيرا ليبلغ قمة أعز أمانيه لوان أميرا نبيلا يختاره ليكون في بلاطه ،وينتزعه من الفاقة بيد معطاء . فان زاد على ذلك فأولاه ثقته ورضاه ، وأراد ان يخرج به من صف العامة فرفعه اليه ، سواء في الحرب ، او في شئون الدولة او في المباشرة الشخصية . هناك أظن أن هذا الرجل الوضيع الحال في البداية يستطيع ان يحتفل بحظه وكله شعور بعرفان الجميل . والى كل هذه المزايا يضيف تاسو مايعد بالنسبة الى كل شاب أعظم سعادة ، وهو أن وطنه منذ الآن يعرف قدره ، ويودع فيه آماله . أوه ! صدّقني ، ان سخطه المتقلّب يصدر عن كونه يستند على الوسادة الوثيرة لحظه . لكن هاهو ذا قادم ،فاصرفه بلطف واحسان ، وامنحه الفرصة ليجد في روما أو نابلى . او أين يحلو له — مالايجده ها هنا ، ومالن يستطيع ان يجده الاّ هنا.

ألفونسو : هل يريد العودة الى فرّارا أولا ؟

انطونيو : انه يريد أن يبقي في بلرجوردو ، ويريد ان يرسل اليه أحد الاصدقاء مايحتاج اليه للسفر .

ألفونسو : انا راض بهذا . اختى ستعود على الفور الى المدينة ومعها

صديقتها ، ولما كنت سأركب فرساً فسأصل قبلهما . وأنت ، الحق بنا فيما بعد ، متى ماانخذت من الاجراءات اللازمة . أصدر الى الناظر الاوامر المطلوبة ، وقل له ان تاسو يمكنه البقاء هنا في القصر كما يشاء ، حتى يبعث اليه أصدقاؤه بأمتعته ، واكون انا قد أعددت الرسائل التي سأكلفه بحملها الى روما . انه قادم! وداعا .

المنظر الثاني

ألفونسو ، تاسو

تاسو : (بلهجة فيها تحفظ) ماأبديته لى من احسان مرارا عديدة يتجلى لى اليوم في تمام نوره . لقد عفوت لى عن الذنب الذى ارتكبته بالقرب منك ، وكان ارتكابي اياه عن غفلة واجتراح للاثم . وصالحتني مع خصمى ، وتوافق على السماح بالاذن لى في الابتعاد عنك ، وتريد بكرمك ان تحتفظ برضاك عنى . فأنا أرحل اذن والثقة تغمرني والأمل الخفى يحدوني ان تشفيني هذه الغيبة القصيرة من كل مايضايقنى الآن . ستحلق روحى من جديد ، وعلى الطريق الذى خطوت فيه اول خطواتي المبتهجة الجريئة بتشجيع من نظراتك ، سأقتني من جديدمايرشحنى لرضاك .

الفونسو : أتمنى لك سفرة سعيدة ، وآمل أن تعود الينا مسرورا موفور العافية . وحين تعود الينا قرير النفس ستعوضنا أضعافا عن كل ساعة تحرمنا الآن منها . وسأعطيك رسائل الى من يتولون خدمتى ، والى أصدقائي في روما ،

وارجو رجاء حارا ان تشعر بالثقة مع رجالى في كل مكان ، اما عن نفسى ، فعلى الرغم من ابتعادك فلن أكفّ عن أن أعدّك من بين رجالى .

تاســو : أنت تغمر ، ايها الامير ، بالافضال رجلا يرى نفسه أهلا لذلك ، ولايستطيع الآن ، ان يجد الكلمات التى يعبرّ بها عن شكره لك . وبدلا من الشكر ، اوجه اليك رجاء ! لاشيء عندى أعز من قصيدتي ، لقد فعلت الكثير ، ولم أدخّر أى جهد ، ولاأية عناية ، ولكنى أرى انها لاتزال بعيدة جدا عن الكمال هناك حيث تحلق روح العباقرة الكبار . ولاتزال تمارس تأثيرها الخصب أريد أن أعود الى مقاعد المدرسة : وبهذا تكتسب قصيدتي مايجعل رضاك عنها أكبر . أوه ! أعد الىّ هذه الاوراق الذى يخجلنى انها بين يديك .

ألفونسو : لاأحسبك تريد ان تسترد منى اليوم ماسلمتنى اياه في هذا اليوم نفسه . دعنى أقم بدور الوسيط فيما بينك وبين قصيدتك ! وحاسب أن تحملك القسوة على اضعاف الروح الطبيعية التى تسرى في شعرك ، ولاترع سمعك لآراء كل من ينصحونك ! ان الشاعر يمزج في كلّ منسجم آلاف الافكار المختلفة للعديد من الناس ، الذين لايتفقون في طريقة الحياة ، ولافي الرأى ، والشاعر البارع لايخشى أن يُسْخط البعض ، ابتغاء ان يزيد من رضا آخرين . ومع ذلك فلست أزعم انه لاينبغى عليك ان تستعمل المبرد باحتياط هاهنا وهاهناك ، وإني اعدُك ان تتلقّى عما قليل نسخة من قصيدتك . اما النسخة التى كتبتها

بخط يدك فستبقى بين يدىّ ، ابتغاء ان استمتع بها اولا استمتاعا كاملا وأنا أقرؤها مع أختى . وحين تعود الينا بصورة أكمل ، فسنستمتع استمتاعا أكبر ، واذا نقدناها كان ذلك نقدا يصدر عن أصدقاء لك .

تاسو : لاأملك الا أن أجدّد رجائي وأنا خجل : اعمل على أن أحصل بسرعة على النسخة الموعودة ! ان روحى كلها معلّقة بهذا التأليف ، والآن ينبغى ان يصير من الكمال بقدر مايمكن ذلك .

الفونسو : لاأملك الا أن أشهد بالحماسة التى تسرى في نفسك . لكن ، ياعزيزى تاسو ، ان كان هذا ممكنا ، فعليك اولا ان تنعم فترة من الوقت بالدنيا كما يحلو لك ، وعليك أن تسرّى عن نفسك وتصلح من أمر دمك بعلاج مناسب . هنالك يعطيك انسجام حواسك — وقد عادت اليها العافية — ماتبحث عنه دون جدوى الآن وانت في حميتك المضطربة .

تاسو : ياأميرى ! هذا مجرد مظهر : فصحتى كاملة حين استطيع العكوف على العمل ، وفي مقابل ذلك فان عملى يردّ الىّ العافية . انت تعرفنى منذ وقت طويل : أنا لاأشعر الراحة في أحضان الوفرة المتبطّلة . ان الراحة نفسها هى مايسلبنى الراحة . ان روحى ، واأسفاه ، وأنا أحس بهذا ، لم تقيّضها الطبيعة للابحار بسرور في بحر الازمنة الشاسع ، محمولة على أمواج الحياة الهادئة .

الفونسو : كل ماتفكر فيه وكل ماتفعله يعود بك دائما الى أعماق نفسك . نحن محاطون بالكثير من الهوىّ (٢٩) التى حفرها

المصير ، لكن في قلبنا الهوّة الاشد عمقا ، ومن المغرى
ان يندفع المرء فيها . ارجوك ان تنتزع نفسك من نفسك !
واذا كان الشاعر يخسر في هذا ، فان الانسان يكسب فيه

تاسو : عبثا أناضل لقدح الحماسة التي تنطلق في موجات ، ليل نهار ، داخل صدري . واذا كان عليّ ان أكفّ عن التفكير أو قول الشعر ، فلن تكون الحياة عندى بعد هي الحياة . حاول اذن أن تمنع دودة القز من أن تفرز حريرها ، على الرغم من أنها تعرف أنها وهى تفرز خيوطها تعجّل بساعة موتها ، انها تنشر نسيجها الثمين داخل أحشائها ، ولاتتوقف قبل ان تغلق على نفسها في تابوت نعشها . آه ! جعلنا الاله الكريم ننال حظ هذه الدودة الخليقة بالحسد ، حتى نستطيع أن ننشر اجنحتنا السريعة المسرورة في شعاع شمس الآخرة !

الفونسو : أصغ اليّ ! ان في وسعك ان تضاعف متعَ هذه الحياة الدنيا للعديد من الفانين ، فارجوك ان تتعلم كيف تعرف قيمة الحياة التى تملكها غنيّة عشرات المرات . وداعا ! كلما أبكرت في العودة الينا ، كان ترحيبنا بك أجمل

المنظر الثالث

تاسو : (وحده) اصمد ، ياقلبى ، فلقد أحسنت صنعا ! انه صعب عليك اذ هذه هى المرة الاولى التى فيها تريد وتستطيع أن تخفي فكرك . لكنك سمعت جيدا ، لم يكن ذلك قلبه ، ولم تكن تلك كلماته . لأني لم أكن أسمع الا صوت أنطونيو . أوه ! احترس ! من الآن فصاعدا

سيكون هو الصمت الذى يقرع أذنيك في كل مكان .
كن ثابتا ، ثابتا فحسب ! الأمر لايحتاج الا الى لحظة .
من يتعلم متأخرا المداجاة . يحتفظ في أعين الجميع بمظهر
الرجل الشريف . لابأس . اتبع الدروس التى يلقيها
عليك الناس .

(بعد لحظة صمت)

أنت تتغنى بالنصر قبل الأوان ، هاهى ذى قادمة الاميرة
اللطيفة قادمة ! أوه ! أى مشاعر تضطرب في نفسى
هاهى ذى تدخل ، وفي صدرى ينحل الضيق وسوء
الظن الى آلام .

المنظر الرابع

الاميرة ، تاسو . (عند نهاية المسرح ، سائر الشخصيات)

الامـــيرة : أنت تفكر اذن في مفارقتنا ، او بالاحرى ستبقى فترة
في بلرجوردو ، وبعدها تريد ان تبتعد عنا ، ياتاسّو ؟
ارجو الايطول غيابك . هل أنت ذاهب الى روما ؟

تاســو : نعم ، سأتوجه إلى هناك أولاً . وإذا استقبلنى أصدقائي
بإحسان ، ولي الحق في أن آمل هذا . فلربما استطيـع
أن ألمس قصيدتي اللمسات الأخيرة ، بعنايـة وصبر .
وسأجد في روما كثيراً من الناس الذين يستطيعون ادعاء
أنهم أساتذة في كل الفنون . وفي عاصمة العالم هـذه
هل يوجد مكان أو حجر لا يوجه الكلام إلينا ؟ وكم من
آلاف الاساتذة الصامتين يشيرون علينا في جلالهم الجاد

بالطريق الذي ينبغي سلوكه ، وفي لهجتهم مودة ! وان لم أتم قصيدتي هناك ، فلن أتمها أبـداً . آه ، وا أسفاه أشعر بهذا منذ الآن : لن يكلل بالنجاح أي عمـل من أعمالي . سأجري تعديلات في كتابي ، لكن لـن أستطيع إتمامه أبداً . أنا أستشعر هذا ، استشعره جيداً ، ان الفن السامي الذي يغذي كل إنسان ، ويقوّي ويسلي النفوس السليمة ، سيؤدى إلى هـلاكي ، وسينفينى . سأهرب بكل سرعة ! وسأمضي إلى نابلي بعد ذلك .

الأمـيرة : أيحق لك أن تتجاسر على فعل هذا ؟ ان الحكم القاسي الذي نفاك ونفى أباك لم يُلْغَ بعد .

تاسـو : أنتِ على حق في تحذيرك اياي ، لكنى فكرت في هذا من قبل . سأذهب إلى هناك متخفياً . ان على ظهـري الرداء الفقير للحاج أو للراعي . سأتسلل خلال المدينة ، جيث يسهل على الفرد الواحد أن يختفى في زحـام الآلاف من الناس . وسأعود إلى الشاطىء ، وهنا سأجد على الفور زورقاً فيه ناس متساهلـون طيبون ، هـم فلاحون جاءوا إلى السوق ويعودون إلى بيوتهم ، ناس من أهـل سـورنته Sorrente ، إذ ينبغى علي أن أبادر بالذهاب إلى سورنته ، فهناك تقطن أختى ، التي كانت هي وأنا مصدر السرور الأليم لابوينا . وعـلى الزورق لن أنبس بكلمة ، وأبلغ الشاطىء صامتاً دائماً ، ثم أصعد بخطى بطيئة في الطريق ، وعند باب المدينـة سأسأل : أين تسكن كورنليا ؟ دلّوني على مسكنها ! كورنليـا سرسالي Cornelia Sersale ؟ وبلطـف

تدلّني غزالة على الطريق ، وتصف إلى البيت ، واستمر الصعود . ويعود الأطفال إلى جانبي ويتطلعون بعيونهم المشدوهة إلى هذا الغريب الغامض ، ذي الشعر الاشعث وهكذا أصل إلى القبة . الباب مفتوح : فأدخل البيت .

الأميرة : افتح عينيك ان استطعت يا تاسو ، وتبين الخطر الذي أنت مقدم على الالقاء بنفسك فيه . اني أترفق بك ، والا لقلت لك : هل من النبل أن تتكلم بمثل هذا الكلام ؟ هل من النبل الا تفكر الا في نفسك ، كما لو كنت لا تحزن قلوب أصدقائك ؟ ألا تعرف ما يراه أخي ؟ ألا تعرف كم تعرف اختاه قدرك ؟ ألم تشعر بهذا ، ألم تعترف به ؟ هل تبدل كل شيء إذن في لحظة واحدة ؟ تاسو ! إذا أردت أن تفارقنا . فلا تجعل الألم والهم من نصيبنا .

تاسو (ينحرف برأسه)

الأميرة : مما يسلي أن يقدم هدية صغيرة إلى الصديق الذي يقوم بسفره قصيرة ، حتى لو لم تكن هذه الهدية إلاّ معطفاً جديداً أو سلاحاً . لكن إليك أنت لا يمكن إعطاء شيء ، لأنك ترمي غاضباً كل ما تملك . لقد اخترت أنت صدفة الحجاج والمعطف الأسود ، والعصا الطويلة وسترحل فقيراً بإرادتك ، حاملاً مالاً تستطيع أن تستمتع به إلا معنا وحدنا .

تاسو : أنت إذن لا تريدين أن تطرديني طرداً تاماً ؟ يالها من كلمة حلوة ! يا لها من سلوى جميلة عزيزة ! احميني ضعيني في حمايتك ، اتركيني هنا في بلوجوردو ،

ابعثى بي إلى كونساندو لي Consandoli ، أو إلى حيث تشائين ! ان الأمير يملك قصوراً جميلة عديدة ، وكثيراً من البساتين ، التي تحتاج إلى العناية طوال العام ، وأنتما لا تقيمان فيها إلا يوماً واحداً أحياناً ، بل وساعة واحدة في أحيان أخرى . نعم اختارا أبعدهـا ، ممـا لا تزورانه طوال أعوام ، وربما كان في هذه اللحظة مهجوراً ، ابعثا بي إلى هناك . وتحملا أن أكـون هناك في خدمتكما . كم أود أن أعنى بأشجارك . أشجار الليمون سأغطيها في الخريف بالألـواح والقـرميد ، وسأحميها باليراع المضفر ! والازهار الجميلة فـي الحواش ستجد جذورها على رسلها ، وكـل ممشى ، وأصغر ركن سيكونان نظيفين مبهجين . كلي إلي أمـر القصر . في الوقت المناسب سأفتح النوافـذ ، حتى لا لا تفسد الرطوبة اللوحات ، والجدران المزينة بالقواعد المنحوتة الأنيقة سأنظفها بمكنسـة خفيفة ، وستلمع الأرضية الخشبية وهي تتلألأ من النظافة ولن أسمـح بتحريك حجر أو قرميد سقف ، أو بنبات عود عشب في شقوق الأسوار .

الأمـيرة : لا أجد في صدري علاجاً لك ، ولا أجد فيه عزاء لك ، ولا لنا نحن . عيني تتلفت حوالي وهـي تبحث عن إله يريد أن يكون في عوننا ، وأن يدلنا على نبتة طيبة . أو أى شراب يرد السلام إلى حواسك ويهييء لنا السلام نحن أيضاً . ان أخلص كلمة يمكن أن تصدر عن الشفاه ، وأنجح دواء لن يؤثرا فيك . يجب علي أن أتركك بيد أن قلبي لا يمكن أن يفارقك .

تاســو : أيتها الآلهة ، أهي مع ذلك هي التي تتكلم معك أنت وتشفق عليك أنت ! وهل استطعت أنت أن تسيء فهــم هذا القلب الكريم الجواد ؟ وهل استطعت في مواجهتها أن تدع اليأس يستولي على نفسك ويلقى بك عـــلى الأرض ؟ لا ، لا ، أيتها الأمــيرة ، هــا أنت ذي ! وهأنذا أنا أيضاً . أوه استمري في الكـــلام ، ودعيني ألتقط من فمك الكلمات التي تشفي من كل العلل ! لا تحرميني من نصائحك آه ! قولي لي ماذا ينبغي أن أفعـــل للحصول على عفو أخيك ولكي تريدي أنت العفو عني ، ولكي تستطيعا أن تكونا سعيدين بأن تحسباني من رجالكما رجالكما ؟ قولي لي .

الأمــيرة : ما نريده منك شيء قليل ، ومع ذلك يبدو كما لو كان كثيراً . ما عليك إلاّ أن تسلم قيادك إلينا بمودة . لا نريد منك شيئاً غريباً عنك ، نريد قبل كل شيء أن تكون راضياً عن نفسك . أنت تعطينا السرور حين تشعر أنت بالسرور ، وتحزننا حين تهرب من السرور ، وإذا كنت تجعلنا نحن أيضاً نافذي الصبر ، فذلك فقط لأننا نود أن نقدر على مساعدتك ، لكننا نرى ، مع الأسف ان كل مساعدة تذهب سدى ، حين لا تريد أنت نفسك أن تمسك اليد الصديقة التي تمتد إليك راغبة في الوصول إليك لكنها لا تستطيع الوصول إليك .

تاســو : وأنت أنت دائماً مثلما كنت في المره الأولى التي رأيتك فيها مقبلة علي ، أعني : مَـلَـكاً من السماء ! اغفري للنظرة المحجوبة للفاني الذي هو أنا ، ان كان قد أساء

فهمك للحظة قصيرة — انه يقرّ بك ! ونفسي تنفتح كلها لتعبرك بغير حدود ولا نهاية . وقلبي كله يمتلىء بالرقة — نعم إنها هي ، هي الماثلة أمامي الآن . أي شعور يسيطر علي ! أهو هذيان يقتادني إليك ؟ هل هو جنون مطبق ؟ أهو شعور مرتفع يمكنني للمرة الأولى من أن أدرك أسمى الحقائق وأصفاها ؟ نعم ، إنهـا العاطفـة وحدها هي التى يمكن أن تجعلني أتذوق السعادة على هذه الأرض ، وتستطيع وحدها أن تجعلني بائساً ، حين أقاومها وأريد أن أنفيها عن قلبي . هذا الوجدان أردت محاربته ، وكافحت ومضيت في الكفاح مـع أعمق كياني ، فدمرت بوقاحـة طبيعتى الحقيقية ، التـى تنتسبين أنت إليها وتؤلفين جزءاً منها .

الأمـيرة : إن شئت منى أوأن أواصل الاصغاء إليك ، يا تاسو ، فخفف من هذه الحماسة المتوهجة التى تثير الخوف في نفسي .

تاسـو : هل حافـة الكأس حاجز للخمر الذي يغلي ويزبـد ، ويفيض هادراً؟ كل كلمة من كلماتك ترتفع بسعادتي ، ولدي كل لفظة من ألفاظك تلمع عينك لمعاناً أشـد . وأحسّ بأن كياني قد تغير في أعماقه ، وأني تخلصت من كل ألم ، وبأني حـرّ حرية إله ، وكل هذا انمـا أدين به لك أنت ! والقوة العجيبة التي تخضعني ، انمـا تنطلق من شفتيك ، نعم لقد استوليت انت على كل كياني . ومنذ الآن فلم يعد شيء هو لى ممـا هو لى . وعيني أعمتها السعادة والنور ، وحواسيّ تترنح .وساقاى

تسوخان من تحتي . انت تجتذبيني اليك اجتذابا لا يدفع وقلبي يندفع اليك دون ان أقـــدر على كبحه . لقـــد استوليت عليّ الى الابد ، فخذى كياني كله .

(يسقط بين ذراعيها ، ويحتضنها بقوة)

الامـــيرة : (وهى تدفعه عنها وتبتعد بسرعة) ابعد عنى !

ليونورا : (وكانت قد ظهرت في عمق المسرح ، وهى تعـــدو) ماذا جرى ؟ تاسو ! تاسو !

(تتبع الامـــيرة) .

تاســـو : (يتهيأ للحاق بهما) . يا الهى !

الفونسو : (وكان قد اقترب منذ فترة ومعه أنطونيو) لقد فقـــد عقله ، اقبضوا عليه (يخرج) .

المنظر الخامس

تاســـو ، أنطونيـــو

انطونيو : آه ! لو أن واحداً من أولئك الاعداء الذين تعتقد أنك محاط بهم كان حاضرا في هذه اللحظة بالقرب منك ، كم كان سيشعر بالنصر ! أيها الشقيّ ، لا أكاد أثوب من دهشتي ! حين نجد أنفسنا بغتة في مواجهة حادث غير متوقع ، وحين ينبثق أمامنا شيء رهيب ، فان عقلنـــا يتوقف فترة عن التفكير : اذ لانجد لمـــا نراه شبيها .

تاســـو : (بعد صمت طويل) أدّ وظيفتك ـــ هأنذا أرى ، انه أنت ، نعم ، أنت جدير بالثقة الاميرية ؟ أتمّ وظيفتك ، وما دام الحكم قد صدر فعذّبني ببطء حتى الموت .

انتزع ! انتزع السهم حتى أحس جيدا بالسن المنحنية وهي تمزق لحمي . انت للأمير أداة ثمينة ، فكن السجان وكن الجلاد ! كلتا الوظيفتين تليق بك تمـــاما . (متلفتا نحو المسرح) نعم ، اذهب ايها الطاغية ! لم تقـــدر على المداجاة حتى النهاية ، انتصر . لقد أحكمت وثاق العبد ، واحتفظت به بعناية من أجل عذابات منسقة باتقـــان : نعم ، يمكنك ان تذهب ، انى أكرهك ، وأشعر تماما بالكراهية التي يثيرها الطغيان الذى يكشف عن ظلمه الاثيم . (بعد فترة صمت) . هأنذا أرى نفسى في النهاية متعبا منبوذا ، مطرودا كالشحاذ ! وهكذا توجوني ، كما تزين الضحية التي تساق في المذبح ! وهكذا في اليوم الاخير انتزعوا مني ، بالكلمات المعسولة ، بالخـــداع والحيلة ، ثروتي الوحيدة ، قصيدتى ، واحتفظوا بها ! ملكى الوحيد انه بين أيديهم ، وهو الذى كان سيؤمن لى في كل مكان استقبالا جميلا ، وكان الشيء الوحيد الذى بقى لى لادفع به عن نفسى غائلة الجوع ! الآن أرى جيدا لمـــاذا أرادوا لى الراحة . هذه مؤامرة وأنت رأسها المدبر : مؤامرة لكي تظل قصيدتي ناقصة ، وحتى لا يذيع اسمى في الآفاق ، ومن أجل ان يعـــثر فيها الحساد على آلاف العيوب وابتغاء ان تغوص ذكراى في هاوية النسيان ، نعم من أجل هذا كله كان عليهم ان يعودوني على البطالة والفراغ ، ومن أجـــل هذا كله ارادوا مني أن أوفر نفسى وذاتي . أوه ! أيتها الصداقة الثمينة ، أيها الاهتمام الثمين ! لقد كنـــت أتصورها مخيفة تلك المؤامرة التي أحاطتنى بحبائلها في

الظل ودون هوادة ، لكنها أشد هولا مما كنت أتخيل . وأنت ، أيتها السيرينه (٣٠) ، يا من محياك الملائكي اجتذبتني بلطف ، هأنذا أراك فجأة على حقيقتك ! يا الهي لماذا بأخرة هكذا ، بيد أننا نحب ان نخدع أنفسنا ، ونكرّم البائسين الذين يكرّموننا . ان الناس لا يعرف بعضهم بعضا ، والمحكوم عليهم بالتجديف في السفن هم وحدهم الذين يعرف بعضهم بعضا ، وهم يتعذبون وتتقطع أنفاسهم وهم مقيدون بالاغلال في مقعد واحد ، هنالك حيث لا يطلب أحد شيئا ، ولا يخسر شيئا ، يعرف كل واحد الآخر ، هناك يعدُّ كل واحد منهم نفسه سافلا ، ويرى في زملائه سفلة . أما نحن فنحن نسيء فهم الآخرين ، شأننا شأن المتملقين ، ابتغاء أن ينخدعوا بدورهم فيما يخصّنا .

ان صورتك المقدسة أخفت عن عيوني وقتا طويلا تلك اللعوب ذات الحيل المعبّرة !

سقط القناع ! وهأنذا أرى الآن أرميده (٣١) وقد نزعت منها كل مفاتنها — نعم أنت أرميده Armida أنت التي تغنيتُ بها في قصيدتي عن سبق تكهنّ ! وهذه القوّادة الماكرة الدنيئة ! كم تبدو لي خسيسة ! اني أسمع الآن وقع أقدامها الخفيفة ، وأعرف الدائرة التي تزحف حواليها . انتم جميعا انا أعرفكم ! وحسبي هذا ! واذا كان الشقاء قد سلبني كل شيء ، فلا يزال عندي مايدعوني الى الشكر له ؛ فقد علّمني الحقيقة .

انطونيو : اني أستمع اليك ياتاسو بدهشة ، وان كنت أعلم كم

تتأرجح روحك المندفعة من النقيض الى النقيض بسهولة .
ثُبْ الى رشدك ! وتحكم في غضبك وفورتك ! أنت
تجدّف ، وتستبيح لنفسك أقوالا بعد أقوال نغتفرها لك
لآلامك ، لكنك لن تغتفرها أبدا لنفسك .

تاســـو : أوه ! لاتحدثني بهذه الشفاه الرقيقة ! ولا تجعلني أسمع
منك كلمات . اترك لي سعادة الهذيان الغامض ، حتى
لا أثوب الى رشدي ، وحتى أستطيع أن أغرق في الجنون
اني أشعر بأن كل شيء قد تحطم في كياني ، واني
أعيش كي أشعر بهذا . اليأس استولى ، وانطلق عنيفا ،
وفي العذابات الجهنمية التي تفترسني ، ليس الشتم في
فمي غير صرخة ضعيفة ينتزعها الالم . أريد الرحيل !
فان كنت رجلا مستقيما ، فاكشف لي عن استقامتك ،
بأن تتركني ابتعد في الحال عن هذا المكان .

انطونيو : لا ، لن أتركك ابدا وأنت في هذه الحال الاليمة ، وان
كنت لم تعد تملك السيطرة على نفسك بعد ، فأنا على
الاقل لن أفقد الصبر ، تأكد من هذا .

تاســـو : هل يجب عليّ اذن أن أسلّم اليك نفسي سجينا ؟ اني
أستسلم ، لقد قضي الأمر . لا أقاوم ، ويرضيني هذا .
لكن دع ألمي يخبرك مرة أخرى كم كان جميلا الخير
الذي أضعته بغلطي . انهم راحلون — آه ! الهي ، اني
أرى التراب هناك تثيره عرباتهم . — الفرسان يتقدمونهم
— انهم ذاهبون الى المدينة ، انهم غادون اليها — ألم آت
انا أيضا من هناك ؟ لقد رحلوا ، انهم متضايقون مني .
أوه ! لو استطعت ان أقبّل يد الامير مرة أخرى ! —

لو أستطيع فقط أن أودعه ، وأن أقول له مرة أخرى :
أوه ! مغفرة ! وأن أسمع مرة أخرى : اذهب ،
غُفِر لك ! لكنى لا أسمعه ولن أسمعه ابدا . — نعم ،
اريد أن أرحل ! دعونى فقط أودعكم ، أودعكم
فحسب ، اسمحوا لى ، اسمحوا لى فقط بالحضور
أمامكم لحظة قصيرة ! ربما أستطيع عن هذا الطريق أن
أسترد الصحة . لكن لا ، أنا منبوذ مطرود ، محكوم علىّ
بالنفى ، نفيت نفسي بنفسى ، لن أسمع بعدُ هـذا
الصوتَ ، ولن ألتقى بعدُ بهذه النظرة —

انطونيو : دع صوت انسان واقف الى جوارك لا يخلو من انفعال —
دع صوته يذكرك بأنك لست بائسا كما تعتقد . تشجعّ !
أنت تنهار كثيرا أمام نفسك .

تاســو : ومن قال لك انى بائس على النحو الذى يبدو علىّ ؟
هل أنا ضعيف على النحو الذى يبدو علىّ ؟ هل ضـاع
اذن كل شيء ؟ هل الالم قد أحال البناء — كما لو كانت
الارض زلزل زلزالها — الى كومة رهيبة من الانقاض ؟
أو لست أملك بعدُ عبقريتي ذات الاوجه العديدة ، من
اجل أن أسرّى عن نفسى ، وأسند كيانى ؟ هل انطفأت
كل القوى التى كانت تضطرب في ذاتى ! ألم أعد شيئا ،
مطلقا ؟ بلى ، لايزال كل شيء هناك ، ومع ذلك فانى
لم أعد شيئا ، أشعر بأنى سلبت من نفسى ، ونفسي
سلبت منىّ !

انطونيو : اذا كنت تُخَيِّل الى نفسك انك ضـائع لا حول لك ،
فقارن نفسك بالآخرين ! واعرف من أنت !

تاســو : نعم ، أنت تذكرنى بهذا في اللحظة المناسبة — ألا تفيد

دروس التاريخ بعد ؟ ألا يتجلى امام عيني ، أي انسان نبيل عاني من الآلام اكثر ممـــا عانيت ، حتى أستطيع ان أتماسك بمقارنة نفسي به ؟ كلا ، انتهى كل شيء ! لكن بقي شيء واحد : ان الطبيعة زودت الانسان بالدموع ، وصرخات الالم في المواقف التي يعجز فيها عن تحمل الالم — وهي أعطتني انا قبل كل شيء — اعطتني في الالم صوتا عذبا لأفصح بالشكوى عن قصارى محنتي ، وفي الوقت الذي يظل فيه الانسان العادي عاجزا عن النطق وهو في وطيس عذابه ، منحني الله موهبـــة الافصاح عما أعاني .

انطونيو : (يقترب منه ويأخذه من يده)

تاســـو : أيها الرجل النبيل ! أنت واقف بثبات وسكون ، أما أنا فأبدو شبيها بالموجة التي تحركها العاصفة . لكن فكّـر ، ولا تغتر بقوتك . انها نفس الطبيعة التي زودت هـــذه الصخرة بقاعدة راسخة ، وزودت الامواج أيضـــا بالحركة وعدم الاستقرار . انها ترسل العاصفة ، فتهرب الموجة ، وترجرج ، وتنتفخ وتتواثب مرغية مزبدة . وفي هذه الموجة كانت الشمس تعكس بهاءها ، والنجوم تستريح على صدرها المترجرج في رقة . اختفى البهاء ، وهرب السكون . ولم أعُدْ أتعرّف نفسي في الخطر ، ولم أعد أخجل من الاعتراف بذلك باخلاص وأمانة . تحطمت الدّفة ، والسفينة تتقصّف من كل ناحية . والارضية تنشق تحت قدميّ ! وانا امسكك بكلتـــا ذراعيّ ! وهكذا ينتهي الملاّح ! يتشبث بالصخرة التي لامفر له من التحطم عليها .

الهوامش

١ ـ العمـود الهرمسي ، عند اليـونان ، عمود مر ... ب
القاعدة ، تاجه يمثل راس الاله هرمس ، وكان يستخدم هدى لبيان الطريق او الحدود .

٢ ـ هولدوفكو أريوستو (١٤٧٤ ـ ١٥٥٣) الشاعر الملحمى الايطالي ، مؤلف : « أورلندو الفاضب » .

٣ ـ الزهراء : القسم من البستان ينبت الزهر Beet, Parterre

٤ ـ الدفيئة Winterhaus, Serre : بناء من زجاج تستنبت فيه النباتات التى لا تحتمل برد الشتاء فى البلاد الباردة .

٥ ـ هرقل دسته ، والد الدوق ألفونسو الثاني والاميرة ، وقد حكم باسم : هرقل الثانى « من سنة ١٥٣٥ حتى ١٥٥٩ » . أما هبوليت دسته فكان كردينالا وهو عم هرقل الثانى .

٦ ـ لم يثبت تاريخيا ان بتروركه (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) الشاعر الغنائي العظيم ، عاشق لورا ـ قد أقام فى فرارا .

٧ ـ أم الأميرة والدوق الفونسو كانت رينيه دى فرانس ، بنت لويس الثاني عشر . وكانت قد اعتنقت مذهب كلفان فى الاصلاح الديني ، وبعد موت زوجها هرقل الثانى عادت الى فرنسا .

٨ ـ لوكرتسيا Lucretia d,Este الاخت الكبرى للأميرة ليونورا ، وقد تزوجها دوق أوربينو فى سنة ١٩٧٠ .

٩ ـ هسبريدس : فى الاساطير اليونانية هى بنت أطلس ، وكانت مكلفة بحراسة التفاحات الذهبية فى حديقة الآلهة .

١٠ ـ اى القصائد المكتوبة فى اوراق يعلقها علـى الاشجار الاثيرة عند ليونورا والاميرة .

١١ ـ الاميرة اسمها هى الاخرى ليونورا ، ليونورا سانفتالى .

١٢ ـ بسوخية عند ابوليوس هي معشوقة الايروس (الحب) . والكلمة لغويا معناها فى اليونانية : النفس .

١٣ ـ الكابتول : معبد جوبتر العظيم ، كان مشيدا على القمة

الجنوبية الغربية من التل الكابتولي ، احد التلال السبعة التي بنيت عليها روما . وكان يحتفل فيه بالقناصل، وبالقواد العائدين بالنصر .

١٤ ـ حقول السعادة التى يجرى فيها نهر الليثية (نهر النسيان) ، بحسب الاساطير اليونانية .

١٥ جريجوريو الثالث عشر ، واسمه الاصلي أوجو بونكومباني (١٥٠٢ ـ ١٥٨٥) تولى كرسي البابوية فى سنة ١٥٧٢ . ولد فى بولونيا سنة ١٥٠٢ ، وفيها صار بعد ذلك استاذا للقانون لعدة سنوات . واستقر فى روما سنة ١٥٣٩ . وشارك فى مجمع ترنت ، وصار كردينالا فى سنة ١٥٦٥ ، وأرسل مندوبا بابويا الى اسبانيا ، ولدى وفاة بيوس الخامس ، انتخب لكرسي البابوية . وقد بذل سعيا عظيما فى سبيل الفنون والتعليم : وكثير من المعاهد العلمية فى روما اسس بفضله . وفى عهده صحح التقويم الجولياني ، وانشىء مكانه التقويم المعروف باسمه : التقويم الجريجورى فى سنة ١٥٨٢ . وهو الذي أمر ببناء قصر الكويرينالى ، الـذى هو مقر رؤسـاء الجمهورية اليوم فى ايطاليا ، وامر باقتناء الكثير من التحف التى يفخر بها الآن متحف الفاتيكان .

١٦ ـ Grazien : آلهات اللطف والرقة والرشاقة عند الرومان .

١٧ ـ أرميده وسائر الاسماء الواردة فيما يلى أشخاص فى « اورشليم محررة » لتاسو . وأرميده كانت ساحرة طاردت رينلدو Rinaldo ، لانه ازدرى بحبها . فلما لم تفلح فى الانتقام منه ، حاولت الانتحار . غير ان رينلدو منعها من تنفيذ هذه المحاولة ، وتصالحا معا ، (النشيد الرابع والنشيد العشرون) .

١٨ ـ كلورنده Chlorinde بطلة غير مسيحية ، تحب سرا تنكريد النصراني . وكلاهما يحارب الآخر دون أن يعلم . وتجرح كلورنده ، وقبل موتها بقليل يتعرفها تنكريد (النشيد الثاني عشر) .

١٩ ـ تذهب هرمينا متنكرة الى معسكر النصارى ، لتقدم الى تنكريد دواء عجيبا لشفائه ، وكانت تحبه سرا ، ويطاردها غير المسيحيين (= المسلمون) (النشيد السادس) .

٢٠ ـ سوفرونيا تريد ان تضحى بنفسها فى سبيل النصارى فى أورشليم الذين يريد أمير « المسلمين » علاء الدين ان يقتلهم بسبب صورة سرقوها . لكن حبيبها اولند Olind يتولى المهمة عنها

انفاذا لها . لكن كلورنده تفلح فى جعل علاء الدين يغير رايه . ويقول سيرسى Serassi ان تاسو فى وصفه لسوفروينا أراد ان يصور الاميرة ليونورا .

٢١ ــ unsittlich وهى هنا بمعنى Zuchtlos اى منفلت العيار ، لم يتهذب .

٢٢ ــ الضمير يعود على الشعور .

٢٣ ــ رناتا دسته ، بنت لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، وزوجة هرقل الثاني ، كانت سيدة شديدة الذكاء ، حصيفة ، تشجع العلوم والفنون . رلما زار كالفان فرارا اطلعت على مذهبه فى الاصلاح الدينى وصارت من أتباعه . لهذا حرموها من تربية بنتيها لوكرتسيا وليونورا دسته . وأرغمت محكمة التفتيش ابنها ألفونسو الثاني ، دوق فرارا ، على نفيها من البلاد . والى هذا كله يشير جيته ها هنا .

٢٣ مكرر ــ هى اعتناقها لمذهب الاصلاح الديني كما دعا اليه كالفان ، مما كان سببا فى نفيها من البلاد ،ونزع بنتيها من حضانتها.

٢٤ ــ يتعى جيوفاني باتستا جوارينى Guarini (١٥٣٨ ــ ١٦١٢) على تاسو هذا المسلك ، فيقول عنه فى احدى سروناتاته : « تباهى بشعلتين » ــ اى بحبه لامرأتين فى وقت واحد هما ليونورا دسته وليونورا سانفتالى .

٢٥ ــ بينما كان بيت داسته من أعرق البيوتات النبيلة فى ايطاليا ، كان آل‌مدتشى بيتا احدث نسبيا .

٢٦ ــ اشارة الى أسطورة طيلافوس ، ملك موسيا (وهى مقاطعة فى شمال غربى آسيا الصغرى) الذى اراد ان يعترض مرور اليونانيين وهم فى الطريق الى حصار طروادة فجرحه آخيلوس فى فخذه ، وتنبأ الوحي انه لن يشفى الا بوضع قطعة من صدأ الرمح ، الذى جرح به ، على هذا الجرح .

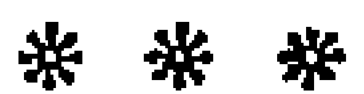
٢٧ ــ حدث فعلا أن الكردينال شبيوني جونزاجا Scipione Gonzaga وكان صديق الصبا لتاسو ، قد جمع ، بناء على رجاء من تاسو نفسه ، نوعا من المحكمة كان أعضاؤها هم النقاد والشعراء المذكورون بعد قليل ، من اجل فحص مؤلف تاسو « اورشليم محررة » .

٢٨ —
Flaminio de'Nobili, Angelio da Barga, Antoniano, Speron Speroni
وقد وجد جيته اسماء هؤلاء فى كتاب سراسى Serassi عن حياة تاسو . وكان اسبيرونى بخاصة شاعرا وناقد معروفا فى وقته .

٢٩ — جمع : هاوية .

٣٠ — Sirene : فى الاساطير اليونانية : حوريات كن بسحر اغانيهن يجتذبن البحارة الى الهلاك . واودسيوس ملاء آذان رجاله بالشمع ، وربط نفسه بالسارية ، حتى ينجو هو ورجاله من تأثير سحر اغانى هذه الحوريات ، واستطاع على هذا النحو ان يواصل ابحاره (راجع « الاوديسا » ، النشيد الثانى عشر) .

٣١ — فى النشيد الثامن عشر من « أورشليم محررة » تتحول ارميده الى وحش مثير للرعب . وقد الف كل م ن جلوك (سنة ١٧٧٧) ويوسف هايدن (١٧٨٣) اوبرا بهذا العنوان .





فى هذا العدد

● **توركواتو تاسو ١٧٨٦/١٧٨٩ تاليف : يوهان فلفجانج جيته**

« هذه مسرحية شعرية عالية النبرة حافلة بالمعاني الجليلة ، وتسرى فيها روح تحلق فى علياء الفن . تناوئها روح اخرى تتشبث بالواقع البارد والخبث الأصيل فى طبيعة الانسان ...

انها مأساة شاعر جامح الخيال دائم التحليق لا يربطه بالأرض الا اوهى الخيوط ، اشتعل قلبه بحب مستحيل التحقيق ، للتفاوت الهائل فى المكانة الاجتماعية بين المحب والمحبوبة ، وبسبب النفاق الذى اقيمت عليه حياة الناس : كلا القلبين يشعر ، لكن احد القلبين تحتجزه الأوضاع التى تعارف عليها المجتمع فينكر بلسانه مايستشعره فى صميم قلبه . ويتظاهر بما يكذبه كل أنفاسه واحساسه ، فيقضى على وجده بيده ، ويسوق الى الجنون من أبى قلبه الا الصراحة والاخلاص » .

من مقدمة المترجم

اتبع جيته فى هذه المسرحية ـ على عكس ما فعل فى مسرحية **جيتس فون براشنج** . (صدرت فى العدد ١١٧ للمترجم من هذه السلسلة) القواعد الكلاسيكية الارسطية وهي ما عرف باسم « الوحدات الثلاث » : وحدة الزمان والمكان والفعل .

